وصف الغبار في شعر المتنبي

دكتور/ عصام محمد قبيصي

الأستاذ المساعد في الأدب القديم و نقده

جامعة نجران – جامعة سوهاج

مقدمة:

ورد وصف الغبار كثيراً في الشعر العربي وخاصة في شعر الحرب والحماسة، وذلك لكثرة الحروب في العصر الجاهلي ، والغبار يمثل ظاهرة طبيعية كثيرة الحدوث في جزيرة العرب، وذلك بسبب جغرافية هذا المكان وطبيعته الصحراوية وكثرة رماله المتحركة التي تحملها الرياح ، فالعربي قديمًا كان يرى الغبار في الحرب والسلم، ومن المعلوم أن الشاعر العربي القديم لم يترك شيئاً رآه إلا وصفه، والحرب والمعارك وشعر الحماسة عموما أكبر أبواب الشعر في الأدب القديم.

وللغبار أسماء كثيرة وردت في كتب التراث ودواوين الشعراء ، وقد قسمها اللغويون إلى أنواع ، وجعلوا لكل نوع من أنواعها اسماً ، ووضعوا فروقا بينها، وجعلوا لكل نوع منها تعريفا خاصا به، ومن هذه الأنواع: غبار الأقدام والسير، وغبار المعارك ، وغبار الرياح ، وقد أضاف أحد الباحثين نوعاً آخر إلى هذه الأنواع وهو غبار الذل والهوان[1] واستدل عليه بقول امرئ القيس: [الطويل]

فَأَصْبَحْتُ مَعْشُوقًا وَأَصْبَحَ بَعْلُهَا عَلَيْهِ الْقَتَامِ سَيِّئَ الظَّنِ وَالْبَالِ[2]

وقد أشار صاحب معجم العين إلى هذا النوع[3]، والقتام في بيت امرئ القيس هو الغبار، وهذا النوع من الغبار ورد في قوله تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾

(١)صورة الغبار في الشعر الجاهلي :صالح الحارثي، جامعة أم القرى رسالة ماجستير(غير مطبوعة)سنة ١٤٣٤هـ.

(٢) ديوان امرئ القيس:تحقيق:درويش الجندي،المكتبة العصرية، صيدا،لبنان،ط٢٠٠٩،١م-١٤٣٠هـ، ص: ٢٥٥.

(٣) معجم العين : الخليل بن أحمد، تحقيق:د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار الهلال (، د.ت)، ٤/ ٤١٣

تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ (١) . وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٞ ﴾(٢) وجاء في تفسير الآية السابقة، أي: " لا يغشى وجوههم كآبة، ولا كسوف، حتى تصير من الحزن كأنما علاها قترٌ. و"القتر" الغبار، وهو جمع "قَتَرَة" (٣) ومن أسماء الغبار التي وردت في القرآن الكريم : النقع، في قوله تعالى :﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤ ﴾. (٤)والهباء، في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾(٥) وقوله تعالى:﴿ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ۝٦ ﴾(٦) ، ومنها الإعصار في قوله تعالى :﴿ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡ﴾ (٧)

وجاء وصف الغبار كثيرا في الشعر العربي وخاصة عند الشعراء الفرسان، الذين خاضوا كثيراً من الأيام والمعارك. وقد أكثروا من وصفه وتصويره، ففي شعر عنترة(٨) كثير من تلك الأوصاف، وليس ذكره مقتصراً على هؤلاء الشعراء، فقد ورد ذكره في شعر كل الشعراء القدامى تقريباً في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي ، وحتى في الأدب الحديث والمعاصر أكثر الشعراء من ذكره، لكنه ورد عند معظمهم رمزاً للظلم أو صورة قاتمة للمستقبل.

أما عن سبب اختيار الموضوع فيرجع إلى الأسباب الآتية :

وجاء فيه قوله مشير إلى هذا النوع من الغبار : والغُبارُ: معروفٌ. والغَبَرَةُ: تردد الغُبارِ، فإذا سطع سمي غُباراً. والغَبَرَةُ: لطخ غُبارٍ، والغَبَرة: تغيير اللون بغُبارٍ للهم.

(١) عبس : ٤٠ – ٤١

(٢) يونس: ٢٦

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) : محمد بن جرير، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م، ٧٢/١٥

(٤) العاديات : ١ – ٤

(٥) الفرقان: ٢٣.

(٦) الواقعة: ٥، ٦.

(٧) البقرة : ٢٦٦

(٨) شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي : تحقيق : مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،ط١، ١٤١٢ه،١٩٩٢م، الصفحات : ٧٨،٦٧،٦٤،٦٣،٥٩،٥٦،٥٤،٤٦،٤٢،٣٧،٣٠،٢٦،٢٤، ٧٩، ٨٣، ١٠٣،٩٨،٨٨،٨٧،٨٥، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٨، ١١٦،١١١، ١٢٨، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٩، ١٨٤، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٩

أولاً : هذه الظاهرة البارزة في شعر المتنبي بالدراسة لم يتناولها أحد بالدراسة من قبل على حد علمي.

ثانياً : غزارة الشواهد في شعر المتنبي التي تصف الغبار بأنواعه المختلفة وتنوع .

ثالثاً : إبداع المتنبي في وصف الغبار وخاصة غبار المعارك.

أما عن الدراسات السابقة فقد تناول اللغويون القدماء الغبار من ناحية الأسماء وتعددها ، لهذا نجد لهذه المفردة حضورًا كثيف في المعاجم بصورة متفرقة ، ولكن ابن سيده في (المخصص) وضع باباً في أسماء الغبار، و وكذلك فعل الثعالبي في (فقه اللغة وسر العربية) والنويري في (نهاية الأرب في فنون الأدب)

أما عن الدراسات الحديثة فلا أعرف سوى رسالة علمية (ماجستير) نوقشت في جامعة أم القرى عام ٢٠١٣ للباحث صالح سالم الحارثي تحت عنوان (وصف الغبار في الشعر الجاهلي) ومن العنوان يتضح أن هذه الدراسة اقتصرت على وصف الغبار في عصر محدد ولم تتطرق إلى كل العصور القديمة.

يتلاءم المنهج الوصفي التحليلي القائم على وصف الظاهرة وتحليلها مع هذه الدراسة، لذا سوف يقوم الباحث باستخدام هذا المنهج، ليصف ظاهرة الغبار في شعر المتنبي، وتحليل النصوص واستخلاص النتائج، وقد اقتضت الدراسة أن يكون البحث في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة على النحو الآتي :

المبحث الأول : أسماء الغبار الواردة في شعر المتنبي.

المبحث الثاني : أسباب كثرة وصف الغبار في شعر المتنبي.

المبحث الثالث : الغبار في الأغراض الشعرية.

المبحث الرابع : الصورة الفنية في شعر الغبار.

الخاتمة : تشمل النتائج والتوصيات.

المبحث الأول : أسماء الغبار في شعر المتنبي

تناول الباحثون ظواهر شتى في شعر المتنبي ، وانشغل به الدارسون قديماً وحديثاً ودارت حوله معارك أدبية ونقدية تفوق الحصر، وإنني أرى ما يراه كثير من الباحثين أنه شاعر العربية الأكبر، ولذا أحببت أن أكشف عن مدى تفوقه واقتداره، وبعده عن العبارات المسكوكة ، وذلك من خلال دراسة ظاهرة واحدة وجزئية صغيرة لا يلتفت إليها معظم الدارسين ألا وهي وصف الغبار الذي يصحب الجيوش.

والحق يقال إن كثيرا من الشعراء سبقوا المتنبي في وصف هذه الظاهرة ومنهم من أبدع في تصويره تصويراً فنياً رائعاً، لكن شاعرنا كان أبدع في تنويع المشاهد التصويرية ، وأتى بصور فنية مغايرة لما قبلها من صور جاء بها سابقوه من الشعراء الجاهليين والإسلاميين، وأيضاً كان لدى المتنبي القدرة على ذكر أسماء عدة للغبار في كل صورة ، فالمتنبي لم يعتمد على العبارات المسكوكة التي كان يستخدمها الشعراء قبل العصر العباسي.

و قد ورد اسم الغبار كثيرا في شعر المتنبي من ذلك قوله : [الخفيف]

ضَارِبُ الْهَامِ فِي الْغُبَارِ وَمَا يَرْ هَبُ أَنْ يَشْرَبَ الَّذِي هُوَ سَاقِي[1]

ويُذكر الغبار أحياناً كناية عن الحرب أو كناية عن احتدام المعركة كما في البيت السابق، وذلك لأنه عندما يلتقي الجيشان يكون الغبار أكثر تطايراً وارتفاعا في الجو، والشاعر في البيت السابق يمدح أبا العشائر الحمداني ويصفه بالشجاعة "لأنه يسقي الأقران الموت، وأنه لا يبالي أن يشرب ما يسقيهم"[2]

ومن ذلك قوله : [الوافر]

إِذَا صَرَفَ النَّهَارُ الضَّوْءَ عَنْهُمْ دَجَا لَيْلَانِ لَيْلٌ وَالْغُبَارِ[3]

وقوله يمدح سيف الدولة: [الطويل]

قَرِيبٌ عَلِيه كُلُّ نَاءٍ عَلَى الْوَرَى إِذَا لَثَّمتُه بِالغَبَارِ القَنَابِلُ[4]

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، ٣٦٥/١

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٣٦٥/١

(٣) السابق١٠٥/٢

(٤) السابق: ١١٩/٣. القنابل: كل خمسين من الخيل، أو كل أربعين منها.

في البيت السابق يرى أن الغبار يقرب ما بعد عن سيف الدولة و "أنه إذا قاد جيشه، ونفذ نحو العدو خيله، ولثمته كتائبه بما تثيره من العجاج، وما يتبعه من الرهج، فكل ما يبعد على غيره قريب عليه مرامه"[١]

ومن أسماء الغبار :الرهج، ذكر ابن سيده أنه اسم من أسماء الغبار[٢]، والرهج بسكون الهاء وفتحها الغبار[٣] وفي الحديث الشريف :" ما خالط قلب امرئ رهجٌ في سبيل الله إلا حرم الله عليه النار "[٤] وفي الحديث الشريف أيضا " من دخل قلبه الرهج لم يدخله حر النار "[٥] ، وينطق الرهج بتحريك الهاء وتسكينها[٦] وقال القالي في أماليه : "أرض رهوج أي كثيرة الرهج والرهج الغبار"[٧] وقد ورد ذكر الرهج كثيراً في شعر شعراء العرب قبل المتنبي وتبعهم المتنبي من ذلك قوله : [البسيط]

انْظُرْ إِذَا اجْتَمَعَ السَّيفانِ فِي رَهَجٍ إلى اخْتِلافِهِما فِي الخَلْقِ وَالْعَمَلِ[٨]

والسيفان : سيف الدولة وسيف الحديد ، والرهج الغبار، وأرهج الغبار أثاره[٩]وقد بين المتنبي في البيت التالي لهذا البيت الفرق بين سيف الدولة وسيف الحديد في قوله : [البسيط]

هَذَا الْمُعَدُّ لِرَيْبِ الدَّهْرِ مُنْصَلِتاً أُعِدَّ هَذَا لِرَأْسِ الْفَارِسِ الْبَطَلِ[١٠]

ومن أسماء الغبار التي وردت في شعر المتنبي العَجَاجُ :و هو الغبار، وقيل هو من الغبار ما ثورته الريح ، واحدته عجاجة ، وفعله التعجيج ،

---

(١) السابق: ١١٩/٣

(٢) المخصص لابن سيده : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ت.) ٦٦/٣

(٣) رسالة الغفران : ص ١٣٨

(٤) تاج العروس : مادة : رهج

(٥) لسان العرب: ٣٣٩/٥، مادة رهج. والحديثان: (رواهما أحمد في مسنده عن السيدة عائشة والطبراني في المعجم الأوسط)

(٦) لسان العرب : ابن منظور : تحقيق : أمين محمد عبدالوهاب ، محمد الصادق العبيدي ، دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان ، ط : ٣، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م ،٥/ ٣٣٩.

(٧) الأمالي لأبي على القالي : ٩١/١

(٨) ديوان المتنبي ٨٢/٣

(٩) السابق : ٨٢/٣

(١٠) السابق : ٨٢/٣

والعجاج الدخان أيضاً[١] وقد وضعه ابن سيده في أسماء الغبار[٢] ، وقد ورد ذكر العجاج في شعر المتنبي كثيراً من ذلك قوله يمدح سيف الدولة الحمداني لما أوقع ببني عقيل ، وقشير، وبني العجلان: [الوافر]

عَجَاجَا تَعْثُرُ العقْبَانُ فيهِ .. . كَأَنَّ الجَوَّ وَعْثُ أَو خَبَارُ

وَظَلَّ الطَّعْنُ في الخَيْلَيْنِ خَلْسَاً ... كَأَنَّ الموتَ بَيْنَهُما اختِصَارُ [٣]

وقد ذكر المتنبي العجاج في شعره الذي يفتخر بنفسه فيه، من ذلك قوله مهدداً بعض من مدحهم وهم لا يستحقون المدح : [البسيط]

مَدَحْتُ قَوْماً وإنْ عِشْنَا نَظَمْتُ لهم ... قصائداً من إنَاثِ الخَيْلِ والحُصُنِ

تحتَ العَجَاجِ قوافيها مُضَمَّرَةٌ إذا تَنُوشِدْنَ لم يَدْخُلْنَ في أُذُنِ[٤]

فهو قد مدح قوماً لا يستحقون المدح ، لبخلهم وجهلهم ، ويتوعدهم إن عاش فسوف يغزوهم بخيل إناث وذكور، "وجعل الخيل كالقصائد المؤلفة التي مدحهم بها[٥]"، وهو في البيتين يشبه قصائده بالخيل سواء كانت هذه القصائد مدحا أو هجاء، لكنه أضاف الغبار إلى الخيل التي شبه بها قصائد الهجاء التي يهدد بها هؤلاء الناس . ومن ذلك قوله مفتخراً في معرض رثاء جدته : [الطويل]

تَغَرَّبَ لا مُسْتَعْظِمًا غَيرَ نَفْسِه وَلا قابلاً إلا لخالقه حُكْماً

ولا سالكاً إلا فُؤَادَ عَجَاجَةٍ ولا واجداً إلا لِمَكْرُمَةٍ طَعْماً[٦]

وفؤاد العجاجة، كناية عن خوض المعارك وغمارها، وأنه لا يرضى إلا أن يكون في مقدمة الصفوف، وهي استعارة مكنية الغرض منها إظهار الشجاعة والإقدام.

و القسطل اسم من أسماء الغبار التي وردت في شعر المتنبي، ويقال للحرب أم قسطل كما في قول الشنفرى في لاميته : [الطويل]

فَإنْ تَبْتَئِسْ بالشَّنْفَرَى أمُّ قَسْطَلٍ لَمَا اغْتَبَطَتْ بالشَّنْفَرى قَبْلُ أَطْوَلُ[٧]

---

(١) لسان العرب ص : ٥٤/٩

(٢) المخصص لابن سيده : ٦٥/٣

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ١٠٣/٢

(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٢١٣/٤

(٥) السابق : ٢١٣/٤

(٦) السابق : ١٠٧/٤

(٧) ديوان الشنفرى : تحقيق : اميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط : ٢ ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م ص : ٦٥

ولهذا الاسم اشتقاقات عدة من هذه المادة " القسطل الغبار وكذلك القسطال والقسطول والقسطلان والكسطل والكسطال[١] وفي لسان العرب " كشطل وكشطن وقشطان"[٢] والاسم الأول هو الذي ورد كثيراً في الشعر العربي قبل المتنبي وقد ورد اسم القسطل في شعره في قوله : [الطويل]

إنْ تَلْقَهُ لا تَلْقَ إِلَّا قَسْطَلاً أَوْ جَحْفَلاً أَوْ طَاعِناً أَوْ ضَارِباً[٣]

وهو في البيت السابق يمدح فيه على بن منصور الحاجب ، ويصفه بأنه دائماً في الحروب ، وفي غبارها طاعناً أو ضارباً لا ينفك عن هذه الأشياء وهذه الأحوال. ومن ذلك قوله يمدح سيف الدولة عندما أتاه رسول من الروم ليفاوضه : [الطويل]

وأنّى اهتدى هذا الرسولُ لأرضِه وما سكنَتْ مذْ سِرْتَ فيها القساطِلُ [٤]

في هذا البيت يتعجب المتنبي ويقول كيف اهتدى هذا الرسول وهو قادم من أرض كلها غبار لم يهدأ قط ، وبذكره الغبار كنى كثرة الحروب التي شنها سيف الدولة الحمداني على الروم، وفي البيت أورد الشاعر" كلمة القساطل وهي جمع كلمة قسطل " وهو الغبار الذي تثيره الخيل بحوافرها "[٥] ، وقد وفق المتنبي في إتيانه بكلمة القسطل مجموعة لأنها أكثر دلالة على كثرة الغبار وتنوعه.

ومن أسماء الغبار القتام : ذكره ابن سيده[٦] ، وفي لسان العرب " القتم والقتام : الغبار، وقتم يقتم قتوماً إذا ضرب إلى السواد "[٧] وفي شرح المعلقات السبع للزوزني، وشرح المعلقات العشر للتبريزي القتام : الغبار، وذلك في شرحهما لبيت لبيد الذي يقول فيه : [الكامل]

فَعَلَوْتُ مُرْتَقِياً عَلَى ذِي هَبْوَةً حرج إلى أعلامهن قتامها[٨]

---

(١) المخصص لان سيده : ٤١/٣ وتاج العروس : مادة : قسطل ، وأمالي القالي : ٢١٣/١

(٢) لسان العرب : ١٦١/١١ ، ١٦٢.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري : ١٢٦/١

(٤) السابق : ١١٢/٣

(٥) السابق : ١١٢/٣

(٦) المخصص لابن سيده : ٤٢/٣.

(٧) لسان العرب : ٣٧/١٢، مادة : قتم.

(٨) شرح المعلقات السبع للزوزني : دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط:١، ٢٠٠٢ ص : ١٩٥

والمعنى أن القتام هو الغبار وقد كثر حتى بلغ إلى الأعلام وهي الجبال ثم تكاثف[١] ، وقد ذكر المتنبي هذا الاسم في قوله يمدح سيف الدولة : [الطويل]

وَ رُبَّ جَواب عَنْ كتَاب بَعَثْتَه وعُنْوانُه للنَّاظرينَ قَتَامُ
تضيقُ بِهِ الْبَيْدَاءُ مِنْ قَبْلِ نَشْرِه و مَا فُضَّ بِالْبَيْداءِ عَنْهُ خِتَامُ[٢]

ومعنى ذلك أن سيف الدولة قد يكون رده على كتاب ملك الروم الذي يطلب في الصلح أو الهدنة جيشاً عظيماً ، يثير الغبار، وتضيق به الصحارى ، وهنا يشبه المتنبي الجيش بالرسالة ، وعنوان هذه الرسالة هو الغبار الكثيف. ومن ذلك قوله مفتخراً بنفسه في قصيدة " الحمَّى " : [الوافر]

يقول ليَ الطّبيبُ أكلتَ شيئاً ... وداؤك في شرابِك والطعامِ
وما في طبِّه أني جوادٌ ... أضرَّ بجسمه طولُ الجَمام
تعوّد أن يغبِّر في السّرايا ... ويدخُل من قَتامٍ في قتامِ [٣]

ومن ذلك قوله في الحكمة ضارباً المثل بالجيش وغباره : [الوافر]

ولو لم يعلُ إلا ذو محلٍّ ... تعالى الجيش وانحطَّ القتامُ [٤]

ومعناه أن العلو لا يدل على شرف المحل ، ولو كان كذلك لكان الغبار سافلاً والجيش عالياً[٥] ، وقد يذكر القتام على سبيل الوصف ليوم المعركة كما في قوله: [المتقارب]

وَلَوْ كَانَ يَوْمَ وَغىً قَاتماً لَلَبَّاهُ سَيْفِيَ والأَشْقَرُ[٦]

الوغى: الحرب، سميت بذلك لكثرة الأصوات فيها، والقاتم: المظلم لكثرة الرهج، والقتام: الغبار[٧]

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة بشرح الطوسي : تحقيق : حنا ناصر الحتى : دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط : ١ ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣ م. ، ص : ٢٤٠.

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري : ٣٩٧/٣.

(٣) السابق : ١٤٨/٤.

(٤) السابق : ٧٢/٤.

(٥) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري : ٧٢/٤.

(٦) السابق: ٩٣/٢

(٧) شَرْح شِعْر المُتَنبي: لأبي القاسم ابن الإفليلي، دراسة وتحقيق: الدكتور مُصْطفى عليَّان، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م ٢/ ١٣٣

ومن أسماء الغبار عند المتنبي العِثْيَر وهو اسم من أسماء الغبار عند ابن سيده[١]، وعرفه الثعالبي بأنه غبار الأقدام[٢] ، والعثير بتسكين الثاء، والعثيرة العجاج الساطع[٣] وهو التراب والعجاج الساطع كالعثيرة(٤) وقد ورد ذكر العثير في شعر المتنبي بوصفه اسماً من أسماء الغبار في قوله يمدح سيف الدولة ويذكر حروبه : [الوافر]

غَطَا بِالْعِثْيَرِ البيداءَ حتَّى تَحَيَّرَتِ المَتَالي والعِشَارُ[٥]

ومعنى البيت : أن سيف الدولة أكثر من الحروب حتى كسيت البيداء بالغبار، وهذا الغبار أثر على الإبل فهي واقفة حائرة لا تعرف طريقها. "والمتالي جمع متلوة ، وهي الناقة التي يتلوها ولدها ، والعشار جمع عشراء وهي التي قربت ولادتها "[٦] وقد ذكر الشاعر العثير في قوله يمدح سيف الدولة وقد تشكى من دُمَّل: [الوافر]

مللْتَ مُقامَ يومٍ ليس فيه ... طِعانٌ صادقٌ ودمٌ صَبيبُ

وما بك غير حُبِّك أن تراها ... وعِثْيَرُها لأرجُلِها جَنيبُ [٧]

وفي البيتين يقول لسيف الدولة : "ما بك مرض، ولكنك تحب ملاقاة العدو بخيل تثير غباراً ، وهي تمشي في ظل ذلك الغبار "[٨]

ومن أسمائه النقع، وهو من أسماء الغبار التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى :﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ ﴾ [٩] وهو من أسماء الغبار عند ابن سيده[١٠]، والثعالبي[١١] ، وهو الغبار الساطع عند ابن منظور[١٢]، وهو مما كثر ذكره كثيراً في شعر المتنبي، من ذلك قوله يصف خيلاً : [المتقارب]

---

(١) المخصص لابن سيده ٦٦/٣

(٢) فقه اللغة وسر العربية : لأبي منصور التعالبي : تحقيق : خالد فهمي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط : ١ ، ١٩٩٨م ص : ٤٦٩/٢.

(٣) لسان العرب : ٤٥/٩ ، مادة : عثر

(٤) تاج العروس ٥٢٧/١٢ ، مادة : عثر

(٥) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري : ١٠٥/٢.

(٦) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١٠٥/٢.

(٧) السابق : ٧٣/١.

(٨) السابق : ٧٣/١.

(٩) العاديات : ٤

(١٠) المخصص لابن سيده : ٦٦/٣

(١١) فقه اللغة للثعالبي ٤٩٦/٢.

(١٢) لسان العرب : ٢٦٧/١٤ مادة : نقع.

خَرَجْنَ من النَّقْع في عارِضٍ ومن عرق الرّكضِ في وابِلِ
فلمّا نَشِفْنَ لَقِينَ السّياط بمثل صَفَا الْبَلد الماحِلِ (١)

يصف المتنبي هذه الخيل بأنها تثير غباراً كأنه السحاب ، وتعرق من شدة الركض عرقاً كأنه مطر شديد، وشبه الغبار بالعارض من السحاب، وجعل عرق الخيل كالوابل إذ كان قد شبه النقع بالسحاب(٢) . من ذلك قوله يمدح سيف الدولة ويصف أحد أعدائه وهو "الدُّمُستُق" : [الطويل]

وَمَا تَابَ حَتَّى غَادرَ الكَرُّ وَجْهَهُ ... جَرِيحاً وَخَلَّى جَفْنَهُ النَّقْعُ أَرْمَدَا (٣)

في البيت يصف المتنبي الدُّمُستُق بأنه تاب، وتوقف عن قتال سيف الدولة، وكان هذا بعد أن كثرت جراحه وخارت قواه وأرمدت عيناه من كثرة غبار المعارك التي شنها على بلاده سيف الدولة.

من ذلك قوله يصف خيل سيف الدولة أيضًا : [الكامل]

عهدي بمعركةِ الأمير وخيله ... في النقعِ محجمةً عن الإحجامِ (٤)

يقول: "لم أر معركة إلا وخيله متقدمة محجمة عن الإحجام"(٥)، أي لا تتوقف عن القتال ومطاردة العدو، ودل قوله في النقع على المعركة من ذلك قوله يمدح سيف الدولة أيضًا : [الطويل]

يَشَقُّ بِلادَ الرُّومِ والنَّقْعُ أَبْلَقٌ بِأَسْيَافِهِ والجوُّ بالنَّقْعِ أَدْهَمُ(٦)

يصف في هذا البيت الغبار الأبلق الذي فيه سواد وبياض ، سواد الغبار وبياض السيوف ولمعانها، وعلى الرغم من هذا كان الجو أسود من كثافة الغبار، والشطر الثاني من البيت السابق هو من قبيل الاحتراز خوفا من أن يظن السامع أن الجو أبلق بمعنى أن غباره غير كثيف، فأتبع ذلك بقوله : والجو بالنقع أدهم، وذلك لأن كثافة الغبار تدل على شدة المعركة وضخامة الجيش وشجاعة الممدوح.

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري : ٢٤/٣.

(٢) اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي: لأبي العلاء المعري: تحقيق: محمد سعيد المولوي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م،ص: ٨٨٤.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٢٨٤/١.

(٤) السابق : ١٣/٤.

(٥) السابق : ١٣/٤.

(٦) السابق : ٨٨/٤.

بالإضافة إلى ما سبق فقد ورد عند المتنبي أسماء أخرى للغبار، وهي قليلة الذكر في شعره ، وقد اختلف حول بعضها اللغويون ، فمنهم من عدها من أسماء الغبار، ومنهم من جعلها صفة له ، وهذه الأسماء هي الدخان، والتراب، والهباء، والهبوة، والإعصار.

لم يختلف اللغويون كثيرا حول كون الإعصار اسما من أسماء الغبار، وهو "ريح تثير سحابا ذات رعد وبرق ، وقيل هي التي فيها غبار شديد ، وقال الزجاج : الإعصار الرياح التي تهب من الأرض وتثير الغبار فترتفع كالعمود إلى نحو السماء"[١] والعصر : الغبار الشديد كالعصرة والعصار، والإعصار الريح التي فيها العصار (ككتاب) وهو الغبار الشديد[٢] ، وقد عده ابن سيده من أسماء الغبار، وذكر أنه الغبار المستدير بريح شديدة[٣] وقد ذكر المتنبي الإعصار بمعنى الغبار في قوله : [البسيط]

على الفُرَاتِ أعَاصيرُ وفي حَلَبٍ ... تَوَحُّشُ لِمُلَقَّى النَّصرِ مُقْتَبَلِ [٤]

ومعنى البيت : أن على الفرات غبرات تثيرها كتائب سيف الدولة ، وفي حلب دار مستقرة وحشة لملك قد عوده الله الظفر على أعدائه[٥]

والهبوة والهباء من أسماء الغبار، وهما من الأسماء التي وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى :﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾[٦] قال علي رضي الله عنه الهباء "الرهج الذي يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب. وقال مجاهد هو الشعاع الذي يكون في الكوة كهيئة الغبار"[٧] وورد لفظ الهباء في قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣ ﴾ [٨] وفرق بعض المفسرين بين الهباء المنبث والهباء المنثور، فالهباء المنثور : شعاع الشمس الذي يدخل من الكوة ، والهباء المنبث : ما تثيره الخيل بسنابكها من

(١) لسان العرب : ٢٣٨/٩.

(٢) تاج العروس : ٦٦/١٣.

(٣) المخصص لابن سيده : ٦٧/٣.

(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري : ٣/ ٣٥.

(٥) السابق : ٣٥/٣.

(٦) سورة الواقعة : آية : ٦.

(٧) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): شمس الدين القرطبي، أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة : الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م، ١٧/ ١٩٧

(٨) الفرقان : آية : ٢٣.

الغبار[١]، والهباء "ما تردد في الضوء الساقط في البيت من الشمس وهو الهباء المنبث"[٢] وهو أيضاً "ما أثارته الريح من التراب"[٣] وهو أيضا " ما تثيره الخيل من حوافرها من دقاق التراب"[٤] ، وقد عدهما ابن سيده اسمين من أسماء الغبار وعرف الهبوة بأنها "التي تدفن كل شيء بالتراب وعرف الهباء بأنه الغبار والجمع أهباء على غير القياس"[٥] وقد ورد الهباء بمعنى الغبار في قول المتنبي يمدح الحسين بن إسحاق ، وكان قوم هجوه ونحلوا الهجاء أبا الطيب : [الوافر]

وإنَّ مِنْ الْعَجَائِبِ أَنْ تَرَانِي فَتَعْدِلَ بي أَقَلَّ مِنْ الهَبَاءِ[٦]

في البيت السابق يخاطب المتنبي للحسين بن إسحاق موجها إليه لوما شديدًا، قائلا له "من العجب معرفتك لي، ثم إنك تسوي بيني وبين خسيس أقل من الهباء، يعني غيره من الشعراء"[٧]

وقد ذكر المتنبي الهبوة وقصد بها الغبار في قوله : [المتقارب]

يُسابِقُ سَيْفِي مَنَايَا العِبادِ إِلَيْهِمْ كَأَنَّهُما في رِهانِ

يَرَى حَدَّهُ غَامِضَاتِ القلوب إِذا كُنْتَ في هَبْوةٍ لا أَرَانِي[٨]

وقال الخطيب : "يضرب بسيفه حتى يبلغ غامضات القلوب فكأن السيف يراها في وقت لا يرى فيه حامله من شدة الغبار نفسه"[٩]

والتراب من أسماء الغبار التي وردت في شعر المتنبي ، فقد ورد في شعره التراب بمعنى الغبار في قوله: [البسيط]

تُرابهُ في كِلابٍ كُحْلٌ أَعْيُنُها ... وَسَيفُهُ في جنابٍ يَسْبِقُ العَذَلا[١٠]

---

(١) تفسير القرطبي : ١٣/ ٢٢

(٢) تاج العروس : مادة : هبو.

(٣) السابق : مادة : هبو.

(٤) السابق : مادة : هبو.

(٥) المخصص : ٦٦/٣.

(٦) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١١/١.

(٧) السابق : ١١/١.

(٨) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١٩١/٤.

(٩) السابق : ١٩١/٤.

(١٠) السابق : ١٦٧/٣.

ومعنى ترابه أي غباره لا يغيب عن كلاب لأنه لا يغيب عنها غاراته وقساطله ولا يغمد عنهم سيفه[١]،

و الدُّخَان من أسماء الغبار التي وردت في شعر المتنبي، فقد ذكر الدخان بمعنى الغبار في قوله : [الخفيف]

إنَّما مُرَّةُ بن عَوْفِ بن سَعْد جَمَراتٌ لا تَشْتَهِيهَا النَّعَامُ
لَيْلُها صُبْحُها مِنَ النَّارِ والإِصْـ بَاحُ لَيْلٌ مِنْ الدُّخَانِ تَمَامُ[٢]

أي أنهم يجعلون النهار ليلاً من كثرة الغبار الذي يثيرونه في غاراتهم، والليل يجعلونه نهارا بكثرة النيران التي يشعلونها في البلاد المفتوحة.

جدير بالذكر أن المتنبي لم يلتزم التزاما كليا بالحدود والتعريفات التي وضعها اللغويون لكل اسم من أسماء الغبار، فقد أورد بعضها مكان بعض كغيره من الشعراء

من ذلك استخدامه اسم العثير لغبار المعارك وكذلك الهبوة والهباء، ومن الملاحظ أيضا أنه كان ينوع في استخدام الأسماء عندما يمدح أحدا بأكثر من قصيدة، هذا إلى جانب تنوع الصورة الفنية الموجودة في شعره والتي تميز بها.

وقد أشار إلى الغبار كناية دون التصريح وذلك في قوله: [الوافر]

وَلَوْ غَيْرُ الأَمِيرِ غَزَا كِلاَبا ثَنَاهُ عَن شُمُوسِهِمُ ضَبَابُ[٣]

ومعنى ذلك كما قال شراح الديوان : لثناه عن الاستضاءة بشموس بلادهم عجاج كتائبهم، وساطع رهج مواكبهم، وأشار بالضباب إلى الرهج[٤]،ومن الإشارة إلى الغبار دون التصريح باسم من أسمائه قوله: [الطويل]

بَعِيْدَةُ أَطْرَافِ القَنَا مِنْ أُصُولِهِ قَرِيْبَةُ بَيْنَ البَيْضِ غُبْرُ اليَلاَمِقِ[٥]

ومعنى قوله : وهم غبر اليلامق: وذلك لما علاهم من الرهج، وأحاط بهم من العجاج. فأشار إلى أن تلك الفلوات النائية التي ظن ظعائن الأعراب أنها تعصمهم، اقتحمها جيش سيف الدولة عليهم، ولم يتهيب اختراقها منهم[٦]

وقوله كناية عن الغبار:[الطويل]

---

(١) السابق : ١٦٧/٣.

(٢) السابق : ٩٧/٤.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٨٣/١

(٤) شَرْح شِعْر المُتَنبي ٢/ ٢٤٠

(٥) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري : ٣٢٦/٢

(٦) السابق: ٢/ ٣٢٦

يقولون تأثير الكواكب في الورى ... فما باله تأثيره في الكواكب[١]

تأثير سيف الدولة في الكواكب هو " إثارة الغبار حتى لا تظهر ليلا، وحتى يزول ضوء الشمس بالنهار، وحتى تطلع الكواكب بالنهار"[٢]

المبحث الثاني : أسباب كثرة وصف الغبار في شعر المتنبي

المتنبي شاعر فارس، وثائر متمرد، يمجد البطولة ويشترك في المعارك ويقاتل فيها، فقد شهد المتنبي كثيراً من حروب سيف الدولة ووصفها وصفاً دقيقاً " وتغنى بها غناءً حاراً، حتى ليتفوق على أقرانه الذين مدحوا قادة العرب وأبطالهم تفوقاً بيناً"[٣] والمتنبي كان فارساً حقيقاً يجيد ركوب الخيل، ويشهد المعارك والمواقع، "لذلك اجتمعت عناصر مادية ونفسية كثيرة جعلت وصفه لحروب سيف الدولة شعلاً من الحماسة القوية" [٤]

وقد كان لاشتراكه في المعارك والحروب مع سيف الدولة أثره الكبير على دقة تصويره للمعارك والأسلحة والطعن والغبار الذي تفنن في تصويره ونوَّع في أسمائه وهذا ما أكد عليه كل من تناول شعره بالدراسة، يقول عمر فروخ : " وأحسن مديح المتنبي يأتي مع وصف المعارك، ذلك لأن المتنبي فارس شهد المعارك مع سيف الدولة "[٥] ولذلك نجده يصف الغبار بكثرة في شعره وأظن أنه لا يوجد شاعر تفوق عليه في وصفه، من حيث الكثرة والتنوع في الصورة الفنية، وذلك لأن وصف غبار المعارك جزء من وصف المعارك ودلالة في بعض الأحيان على اشتدادها واحتدامها، ودلالة أيضا على شجاعة أبطالها وإقدامهم، ولذلك نجد شعراء العرب السابقين له يشيرون إلى ذلك عندما يتعرضون لوصف الغبار، من ذلك قول الحارث بن حلزة يصف صبر قومه تحت الغبار عند استعار نار الحرب: [الخفيف]

---

(١) السابق : ١٥٦/١

(٢) الفتح على أبي الفتح: محمد بن فُوَرَّجة، تحقيق : عبد الكريم الدجيلي،دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد – العراق، الطبعة الثانية ٢، ١٩٨٧ م، ص: ٦٣

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص : ٣٤٧

(٤) السابق : الصفحة نفسها.

(٥) تاريخ الأدب العربي : عمر فروخ، لبنان، بيروت ، دار العلم للملايين، طبعة ٤، ١٤٠١ – ١٩٨١، ص٢٦٩/٢

مَا جَزِعْنَا تَحْتَ العَجَاجَةِ إِذْ وَلّــ ... وا شِلالًا وإِذ تَلَظّى الصِّلاء (١)

يصف الحارث صبر قومه وقت المعركة وقد حمي وطيسها، وعبر بكلمة العجاجة احتدام القتال وتشابك الأقران وقد شبه شدة المعركة باشتعال النار و تلظيها. وقول عنترة : [البسيط]

خُضْتُ الغُبارَ ومُهْرِى أَدْهَمٌ حَلِكٌ فَعَادَ مُخْتَضِبًا بِالدِّمِ والجيفِ(٢)

وقول الأفوه الأودي : [الكامل]

وَإِذَا عَجَاجُ الموت ثَارَ وَهَلْهَلَتْ فِيه الجياد إلى الجياد تَسَرَّع

بالدَّارِعِينَ كَأَنَّها عُصَبُ القَطَا الــ أَسرابُ تَمْعَجُ في العَجَاجِ وَتَمْزَعُ(٣)

وعلى هذا فوصف الغبار جزء من المعركة، تعرض له الشعراء قبل المتنبي، عندما يرتفع الغبار ويصير كثيفاً أسود فذلك دلالة على شدة المعركة، وقد قيل إن عدي بن الرقاع العاملي اشتهر بوصف الغبار وبرع فيه، وذلك لذكره له في بيتين وتصويره تصويراً رائعاً، في قوله يصف حمارين وحشيين : [الكامل]

يتعاوَرانِ من الغبارِ مُلاَءةً ... بَيْضَاء محكمَة إذا نسجاهَا

تُطوَى إذا وَرَدَا مَكَانا محزناً ... وَإذا السنابكُ أسهلت نشراها (٤)

وذلك ما حدا بأبي تمام إلى الإشارة إليه وضرب المثل به في البراعة في وصف الغبار، وذلك في قوله : [الوافر]

يثير عجاجة في كل ثغر يهيم بها عدي بن الرقاع(٥)

فظن البعض أن عدي بن الرقاع كان متفوقاً في وصف الغبار على غيره من الشعراء، لكن شراح ديوان أبي تمام رأوا غير ذلك، حيث ذكروا أن ذكر عدي بن الرقاع في البيت السابق كان لأجل القافية، يقول التبريزي : "ولو كانت القصيدة على الدال لجاز أن يجيء بلبيد أو زياد، لأن الشعراء لا يخلو كثرهم أن يجيء بصفة

---

(١) ديوان الحارث بن حلزة: تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، ص: ٣٥

(٢) ديوان عنترة : ص ١٠٣

(٣) ديوان الأفوه الأودي: تحقيق : محمد التونجي، دار العلم للملايين ن بيروت لبنان، ١٩٩٥ ص ٩١.

(٤) ديوان شعر العاملي : تحقيق : نوري حمودي القيسي، وحاتم صالح الضامن، العراق، مطبعة المجمع العلمي الواقي ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م ص ١٠٥.

(٥) شرح ديوان أبي تمام : الخطيب التبريزي، تحقيق راجي الأسمر، لبنان، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٩٤، ص ٤٠٦/١.

الغبار[١] وقريب من ذلك ما قاله الصُولي وزاد على ذلك " وإنما أراد بيتي عدي بن الرقاع "[٢] وبالنظر في ديوان عدي بن الرقاع نجد أنه لم يكن مولعاً بذكر الغبار، وأيضاً لم يكن مكثراً في وصفه، فلم يكن له فيه إلا أبيات قليلة وقد جاءت صورة الغبار عنده في وصف الصيد أو الخيل والإبل من مثل قوله : [الخفيف]

قَدْ شَهِدْتُ الجِيادَ يَخْرُجْنَ فَوتاً مِنْ غُبـــارٍ مُجَلَّلٍ مُنْجَاب
ساطعٍ يَصْنَعْنَ مِنْـــهُ ذُيُولاً كَمُلاءِ الْعِرَاقِ ذِي الْهُدَّاب[٣]

إذن، فتفضيل عدي بن الرقاع على الشعراء في وصف الغبار ليس حقيقياً، وإنما ذكر ذلك من أجل القافية، أما المتنبي فعلى الرغم من أن النقاد لم يشيروا إلى تفوقه في وصف الغبار لكنهم أشاروا إلى تفوقه في شعر الحرب وتصويرها، والغبار جزء من صورة الحرب، وبالنظر إلى صور عدي نجد بها تكرارًا ظهر في المثالين السابقين من شعره حيث شبه الغبار بالملاءة في القصيدتين.

وقد تناول شعر المتنبي بالنقد كثير من النقاد القدامى، ولا أظن أن حركة نقدية في تاريخ النقد الأدبي العربي قامت على شعر شاعر كما قامت على شعر المتنبي، وعاب النقاد عليه بعض أشعاره وصوره واستعاراته وكناياته، ولم يترك خصومه بيتا واحدا من شعره إلا اتهموه بسرقته من شاعر آخر، وعلى الرغم من ذلك لم أجد في شعر المتنبي الذي وصف فيه الغبار من عاب منه شيئاً إذا استثنينا اتهامه بالسرقة، إلا ما كان من ابن وكيع التنيسي،فإنه لما علق على بيت المتنبي الذي يقول فيه : [البسيط]

ترابهُ في كلابٍ كُحْلٌ أعْيُنُها ... وَسَيفُهُ في جنابٍ يَسْبقُ العَذَلا [٤]

فقال تعليقاً على هذا البيت " لو كان :

إحسانُهُ في كلابٍ غَيْثُ مُجْدِبُها وسَيفُهُ في جنابٍ يَسبقُ العَذَلا

لصح التقسيم إذ ليس التراب ضد السيف[٥]" والتراب في بيت المتنبي هو الغبار، غبار المعارك والغارات التي كانت يشنها سيف الدولة على بني كلاب.

---

(١) السابق : الصفحة نفسها.

(٢) شرح الصولي لديوان أبي تمام : تحقيق خلف رشيد نعمان، منشورات وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٨، ص ٢١/٢.

(٣) ديوان عدي بن الرقاع :ص: ٥٥

(٤) ديوان أبي الطيب بشرح أبي البقاء العكبري : ١٦٧/٣

(٥) المنصف للسارق والمسروق منه : لأبي محمد بن الحسن بن وكيع التنيسي، تحقيق : عمر خليفة إدريس. جامعة قات يونس، بنغازي الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م، ص: ٢٤٧.

ومن جانب آخر استحسن ناقدو شعر المتنبي بعض القصائد التي اشتمل معظمها على وصف المعارك وقد اشتملت هذه القصائد على وصف الغبار، من ذلك ما أورده القاضي الجرجاني في "الوساطة" من محاسن شعر المتنبي قوله : [الوافر]

إِذَا صَرَفَ النَّهَارُ الضَّوْءَ عَنْهُمْ دَجَا لَيْلَانِ لَيْلٌ وَالْغُبَارِ (١)

وذكر القاضي الحرجاني أبياتاً في الغبار من بين قصيدة استحسنها، وذلك في قوله: [الكامل]

في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان(٢)

واستحسن القصيدة التي يقول فيها : [البسيط]

ذمّ الدُمُستُق عينيه وقد طلعتْ سودُ الغَمام فظنّوا أنها قزَعُ (٣)

وقد أورد القاضي الجرجاني قصائد أخرى غير ما ذكر، استحسنها وورد فيها أبيات في وصف الغبار(٤) وأورد البديعي في "الصبح المنبي" : [المتقارب]

خرجن من النقع في عارض ومن عرق الركض في وابل

وعلق عليه بقوله " هذا من بدائعه في حسن التشبيه من غير أداة "(٥)، وفي المثل السائر قال ابن الأثير معلقا على البيت السابق وما بعده " وقد حوى هذان البيتان قرب التشبيه مع براعة النظم وجزالة اللفظ"(٦)، و كان يوسف البديعي مؤلف كتاب (الصبح المنبي) معجباً بشعر المتنبي في وصف الحرب، واستعماله معجماً لفظياً مغايراً ومتنوعاً من ذلك " استعماله ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب والجد" (٧)

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه : القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني : تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، الكتيبة العصرية، صيدا، بيروت ، ط١، ١٤٢٧ – ٢٠٠٦ ص ٩٣.

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه: ص: ٩٥.

(٣) السابق: ص : ٩٨.

(٤) السابق : ص : ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤ ، ١٠٩، ١١٢، ص ١١٣، ١١٤، ١٥٠.

(٥) الصبح المنبي : يوسف البديعي، تحقيق : مصطفى السقا ومحمد الشتا، وعيده رياده، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ص ٤١٧.

(٦) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين ابن الأثير: محمد محي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠ هـ، ١/ ٣٨٦

(٧) الصبح المنبي : ص : ٤٣١.

من النصوص السابقة يتضح أن المتنبي تميز في وصف الخيل، والخيل هي التي تثير الغبار، والغبار جزء من الصورة الكلية للخيل في المعارك وعن تميزه في وصف الخيل يقول البغدادي في خزانته : " ونعت الخيل والحرب من خصائصه"(١)

وقد أعجب النقاد بأبياته التي شبه فيها الشعر بالغبار والخيل في قوله : [البسيط]

مدحت قوماً وإن عشنا نظمت لهم قصائداً من إناث الخيل والحصن

تحت العجاج قوافيها مضمرة إذا تنوشدن لم يدخلن في أذن(٢)

ويذكر البغدادي في خزانته أن السبب في تفوق المتنبي في وصف الخيل والحرب أن " سيف الدولة سلمه إلى النخاسين والرواض ؛ فاستجرأ على الركض والحضر"(٣)

ومن الأسباب التي جعلت المتنبي يكثر من وصف الحروب وغبار المعارك هو أن معظم ممدوحيه كانوا قواداً يقودون المعارك وعلى رأسهم سيف الدولة الحمداني، ولأن هذا العصر عصر انقسامات وفتن وحروب بين المسلمين أنفسهم من جهة، وبين المسلمين والروم من جهة أخرى، وتولى جل حروب المسلمين مع الروم في عصر المتنبي سيف الدولة الحمداني ممدوح المتنبي.

ولذلك قيل عن نشأة المتنبي إنه نشأ في بيئةٍ لا يسمع فيها إلا صليل السيوف ولذلك نجد المتنبي يتأثر بهذا الجو الحربي، حتى إن أمنيته الوحيدة التي كان يتمناها ويعيش من أجلها هي قيادة الجيوش، وأكثر ما كان يؤثر في نفسه هو تولي أناس لا يفوقونه في شيء ولهذا جاء معظم شعره في وصف الحروب والمعارك.

ويروى عن أبي العباس النامي قوله : " كان قد بقي في الشعر زاوية دخلها المتنبي، وكنت أشتهي أن أكون سبقته إلى معنيين، أما أحدهما فقوله : [الوافر]

رماني الدهر بالأرزاء حتى تكسرت النصال على النصال

والآخر قوله : [الكامل]

في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان(٤)

---

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر البغدادي، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٨، ١٩٩٧، ص : ٣٦٣/٢

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ص : ٢١٣/٤

(٣) خزانة الأدب : ٣٦٣/٢

(٤) الصبح المنبي ص ٨١

فأبو العباس في البيت الثاني معجب بتصوير المتنبي للجيش الذي يسير في غبار كثيف، وكثافة الغبار دلالة على عظم الجيش، هذا الغبار حجب الرؤية عن أعدائه فهم لا يرون شيئا، لكنهم يسمعون صوت الحديد ويتحركون استجابة لمسامعهم، فكأنهم يبصرون بآذانهم وهذه شهادة من شاعر كان منافسا للمتنبي، بل كان من خصومه في بلاط سيف الدولة. واختلف شارحو شعر المتنبي في تفسير ذلك البيت، فيقول ابن فورَّجة: وإنما أراد الرجل أن الغبار ستر العيون حتى وقع على الجفن فمنعه أن يفت النظر، والأذن لا تنطبق فلا يثقلها الغبار، وانتصابها دائم. والعين إذا أثقل الغبار جفنها انطبقت فلم تنفتح(١)

وللمتنبي مبالغات ذكرها الدارسون جاء بعضها في وصف الغبار، ولا عجب فشعر المتنبي مليء بالغلو والمبالغات، يقول ابن رشيق القيرواني : " فإذا صرت إلى أبي الطيب صرت إلى أكثر الناس غلوا، وأبعدهم فيه همة، حتى لو قدر ما أخلى منه بيتاً واحداً، وحتى تبلغ به الحال إلى ما هو عنه غنى "(٢)

ومن مبالغات المتنبي في وصف الغبار قوله : [الكامل]

أَقْبَلْتَ تَبْسِمُ والجيادُ عَوابسٌ يخببن بالحلق المضاعف والقنا

عقدت سنابكها عليها عثيرا لو تبتغي عنقاً عليها أمكنا(٣)

والعثير في بيت المتنبي هو الغبار. فقد ادعى في هذا البيت " تراكم الغبار المرتفع من سنابك الخيل فوق رؤوسها، بحيث صار أرضاً يمكن السير عليه"(٤)، ومن مبالغاته في وصف الغبار قوله يصف خيل سيف الدولة : [الوافر]

تُثِيُر عَلى سَلَمْيَةَ مُسْبَطِرًّا ... تَنَاكَرُ تَحْتَهُ لَوْلاَ الشَّعَارُ

عَجَاجَا تَعْثُرُ العِقْبَانُ فِيهِ ... كَأَنَّ الجَوَّ وَعْثُ أَو خَبَارُ (٥)

---

(١) الفتح على أبي الفتح: ص: ٣٢٤

(٢) العمدة في صناعة الشعر ونقده : ابن رشيق القيرواني، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، لبنان، بيروت، ط ٥، ١٤٠١، ١٩٨١، ص : ٦٣/٢.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري : ٢٠٣/٤

(٤) علوم البلاغة : البيان والمعاني والبديع : أحمد مصطفى المراغي : المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ص : ٢٨٤.

(٥) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري : ٢/ ١٠٤

ثم أكد وصف ذلك القتام، فقال، مشيراً إلى تكاثفه، ومنبهاً على التحامه وتراكمه: عجاج تصير العقبان منه في الجو إلى المشي بعد طيرانها، فتعثر فيه سائرة، ولا تتخلص منه ناهضة، حتى كأنه وعث متصل، وخبار"[١]

بالإضافة إلى كل ما سبق نرى بعض النقاد قد أشاروا إلى براعة الشعراء في القرن الرابع الهجري في فن الوصف فقد جاء في كتاب فن الوصف " ولما كان القرن الرابع الهجري تأثر العباسيون بهذه الصور ودرجوا على حبها ومعالجتها، فحلق الشعراء في الوصف وبلغوا ذروة الفن، وطرقوا الموضوعات في عمق وشمول ورسموا ذلك في كثير من الإبداع والدقة"[٢]

وخلاصة القول، لقد توفرت للمتنبي عناصر كثيرة جعلته يبدع في وصف الغبار، وتصويره، من هذه العوامل :

أولا: قدرته الفنية وموهبته الفذة .

ثانيا: فروسيته وميله للقيادة والحروب.

ثالثا: عصره المليء بالصراعات والحروب.

رابعا: بلوغ الشعر العربي القمة في عصره في فن الوصف.

خامسا: معظم ممدوحيه كانوا قادة للجيوش.

سادسا: حالته النفسية فقد كان الشاعر يمنِّي نفسه الأماني ويرغب في القيادة و الولاية ولم تفارقه هذه الرغبة قط، ولكن لا سبيل إلى تحقيقها فشكلت هذه الرغبة رؤية ضبابية عند الشاعر ظهرت في شعره وخاصة في كثرة وصفه للغبار.

هذه العناصر مجتمعة جعلت المتنبي يبدع في وصف المعارك ووصف غبارها، وجعلت شعره في هذا الباب يخلو من العيوب أو يكاد.

المبحث الثالث: الغبار والأغراض

ورد ذكر الغبار في غالبية أغراض الشعر عند المتنبي، في المديح والهجاء والفخر والوصف والحكمة، لكنه كان أكثر دورانا في شعر المديح. لأن الشعراء غالبا ما يصفون ممدوحيهم بالشجاعة، والشجاعة تتطلب خوض غمار الحروب، وارتفاع الغبار وكثافته يكون في المعارك في أولها، فذكر الغبار يأتي للدلالة على الشجاعة والإقدام،

---

(١) شَرْح شِعْر المُتَنبي: ٢/ ٣٠٣.

(٢) فن الوصف: لجنة من أدباء الأقطار العربية: القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١م، ص: ٧ . كتب المقدمة: د. محمد سامي الدهان.

"ومن أقسام الشجاعة: الحماية والدفاع، والأخذ بالثأر، والنكاية في العدو، والمهابة، وقتل الأقران، والسير في المهامه الموحشة والقفار، وما أشبه ذلك"[١]، من ذلك قول المتنبي قال يمدح سيف الدولة: [الوافر]

وأَنْتَ الملكُ تُمْرِضُهُ الحَشَايَا ... لهمَّته وتَشْفِيه الحروبُ

وما بك غير حُبِّك أن تراها ... وعِثْيَرُها لأرجُلها جَنيبُ[٢]

والمتنبي من الشعراء الذين اشتهروا بحسن التعليل وحسن التعليل عند علماء البلاغة هو " هو أن يدعي شاعر وناثر لشيء علة مناسبة غير العلة الحقيقية على جهة الاستظراف"[٣]، والشاعر في البيتين يعلل مرض سيف الدولة لأنه لا يحارب أعداءه، ومن ذلك يرى شفاءه في قيادة الخيل في المعركة، وكنى الشاعر بالعثير عن المعركة، ولولا وجود كلمة العثير في البيت الثاني ما فهم المقصود منه، فهو يقول لسيف الدولة: "ما يشكيك إلا تأخرك عن الغزو، وبعد عهدك بطراد الخيل، وأن ترى ما تثيره من الرهج في الغارات، جنيباً لأرجلها، يقفوها ويتبعها، ويتلوها ويصحبها"[٤]، و على جانب آخر رأى بعض شراح ديوان أبي الطيب أن البيت الثاني هجو لسيف الدولة لأنه غير قادر على الحرب يقول أحدهم :"هو هجو لسيف الدولة، بكونه لا يقدر عليه. إلا أن يكون ذلك وقت مهادنة، فبذلك يصحّ المعنى".[٥]

وقال أيضا يمدحه في قصيدة أخرى وكأنه يكمل الصورة السابقة لأنه ذكر في البيتين السابقين الحشايا وهي الفرش الناعمة التي تكون في القصور : [الطويل]

يَعَافُ خِيامَ الرَّيطِ في غَزَاوَتِه ... فما خَيْمُهُ إلاّ غُبَارُ حُروبِ[٦]

في البيت يمدح المتنبي سيف الدولة بالشجاعة والقسوة، وذلك لأن الصورة الذهنية التي يكونها الناس عن الملوك أنهم مرفهون ومنعمون، لذلك أراد أن يغير هذه الصورة ويبرز ممدوحه بصورة البطل الذي يتحمل المشاق والصعاب، وكلمة "غبار الحروب"

---

(١) نقد الشعر: قدامة بن جعفر:، مطبعة الجوائب – قسطنطينية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٢، ص: ٢٠

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٧٣/١

(٣) علوم البلاغة : أحمد مصطفى المراغي: ص ٣٤٠

(٤) شَرْح شِعْر المُتَنبي: ابن الإفليلي ١٧٤/٢. العثير: الغبار، وجنيب: فعيل، من جنبت الدابة: إذا قدتها

(٥) المآخذ على شُرّاح ديوان أبي الطَّيب المُتَنَبِّي: عز الدين الأزدي المُهَلَّبي، تحقيق: الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م، ص: ٤٥/٢

(٦) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ص: ٥٤/١

تحمل كل دلالات المشقة والتعب، ومعنى البيت: " يعاف القباب في غزواته ويكرهها، ويجتنب خيام الريط ويهجرها، ويأنس بعجاج الحرب فيقتحمنه، ويسكن إلى قتامها فيدرعه، ويؤثر شدائد الحرب على خيامه، وغمراتها على قبائه"(١)، وقال يمدحه: [الطويل]

يزورُ الأعادي في سماءٍ عجاجةٍ ... أسنّتُها في جانبيها كواكبُ(٢)

وفي البيت السابق يمدح المتنبي سيف الدولة بشيء آخر وهو ضخامة جيشه، ودلل على هذه الضخامة بكثرة الغبار، الذي من كثرته جعل الدنيا مظلمة، فلقد أراد بهذا البيت التأكيد على ضخامة الجيش الذي يعده سيف الدولة لأعدائه، ويسير به نحوهم، فهذا الجيش يثير غبارا كثيفا يحجب السماء فصار كالسماء، وأظلم به الجو فبدت السيوف والرماح كأنها الكواكب اللامعة.

وذكر المتنبي الغبار في مديح المغيث بن علي بن بشر العجلي في قوله: [البسيط]

عُمْرُ العدوّ إذا لاقاهُ في رهجٍ ... أقلُّ من عُمْرِ ما يحوي إذا وهَبَا (٣)

عاب كثير من القدماء هذا البيت، وذلك لأنه يحتمل أكثر من معنى، والصحيح ما قاله ابن القطَّاع وهو أن المتنبي يريد أن يقول : "إن عمر العدو حين يلاقيه قريب، كما أن عمر المال عنده قريب حين يدخل إليه حتى يهبه، وليس يريد أن عمر العدو أقل من عمر المال"(٤)، والمتنبي في هذا البيت يؤكد على شجاعة الممدوح، ومهارته في القتال، وأيضا على كرمه وسخائه و قصد بقوله: " في رهج " أي في معركة .

وممن مدحهم المتنبي وذكر شجاعتهم عند ارتفاع الغبار مساور بن محمد الرومي يقول : [الكامل]

يغشى الطعان فلا يردُّ قناتَهُ مكسورةً ومن الكُماةِ صحيحُ

وعلى التراب من الدماء مجاسدٌ وعلى السَّماء من العجاج مُسُوحُ(٥)

هذا الفارس يقتحم المعركة ورمحه في يده، لا يرجع به إلا مكسورا لأنه لم يدع من الأبطال والكماة رجلا صحيحا، ولا يعود إلا والأرض عليها بساط أحمر من دم الأعداء

---

(١) شَرْح شِعْر المُتَنبي: ابن الإفليلي:٢/ ١٢

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١/ ١٠٧

(٣) السابق : ١/ ١١٤

(٤) السابق : الصفحة نفسها.

(٥) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١/ ٢٥٢.

أو كأنها لبست ثوبا أحمر من دم الأعداء، وعلى السماء ثياب سود من ارتفاع الغبار.
وقال يمدح طاهر بن الحسين العلوي وقومه : [الطويل]

أناس إذا لاقوا عدى فكأنما سلاح الذي لاقوا غبار السلاهب[١]

في هذا البيت يبالغ المتنبي بمديح طاهر بن الحسين وقومه، ويصفهم بالشجاعة وعدم الرهبة مما يحمل أعداؤهم من الأسلحة، فهم يرون تلك الأسلحة كأنها غبار الخيول في المعركة.

وممن مدحهم المتنبي أبو العشائر الحمداني، وهو الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان، أمير فارس مشهور شاعر مجيد [٢] وقد مدحه المتنبي بقصائد ورد فيها ذكر الغبار، من ذلك قوله: [المنسرح]

ودارع سفته فخر لقىً في الملتقى والعجاج والعجله[٣]

يصف في هذا البيت أحد أعداء أبي العشائر الحمداني، وهو يرتدي درعه، وقد ضربه أبو العشائر بسيفه فخر صريعا، ودلل المتنبي على شجاعة ممدوحه في البيت السابق بالكلمات : دارع و والملتقى والعجاج، فالعدو كامل العدة والعتاد، والقتل كان في أول المعركة وذلك بذكره الغبار وارتفاعه. ومثل ذلك قوله: [المنسرح]

أفدي الذي كل مأزق حرج أغبر فرسانه تحاماه[٤]

غالبا ما يؤكد المتنبي على شجاعة ممدوحيه من خلال ذكر الغبار من ذلك قوله يمدح كافورا: [البسيط]

بلى يروع بذي جيش يجدله ذا مثله في أحم النقع غربيب[٥]

في هذا البيت يؤكد على شجاعة كافور وعظم جيشه ومعنى البيت : " أنه يخوّف صاحب جيش مثل جيشه، فيصرعه "[٦]، وقال في كافور : [الطويل]

وما كنت ممّن أدرك الملك بالمنى ... ولكن بأيّام أشبن النّواصيا
عداك تراها في البلاد مساعيا ... وأنت تراها في السماء مراقيا

---

(١)السابق: ١/ ١٥٣.

(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب: كمال الدين ابن العديم، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، د- ت، ص: ١١/ ٤٩٣٦

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٣/ ٢٦٩.

(٤) السابق: ٤/ ٢٦٤.

(٥) السابق: ١/١٧٣

(٦) السابق: الصفحة نفسها. الأحم : الأسود، وكذلك الغربيب.

لبست لها كدر العجاج كأنما ... ترى غير صاف أن ترى الجوّ صافيا[١]

في هذه الأبيات يخاطب المتنبي كافورا ويذكر أنه إنما أدرك الملك بالسعي والقتال والجهد ولم يدركه بالتمني، لأنه يعتقد في الوصول للمعالي غير ما يعتقد فيه غيره ؛ وذلك لأن أعداءه يرون الأيام والوقائع مساعي في الأرض وهو يراها مراقي في السماء، ويصفه في البيت الأخير بأنه لبس لها ما اسود من غبار المعارك، فهو يكره صفاء الجو لحبه للحروب والمعارك لأنها السبيل إلى الرفعة والمعالي. وقال يمدحه أيضا : [الطويل]

شديد ثبات الطرف والنقع واصل إلى لهوات الفارس المتلثم[٢]

والمعنى: " هو ثابت في حال الحرب والنقع قد وصل إلى لهوات المتلثم وهو في المعركة ثابت لا يحجم ولا يتأخر ولا يتداخله الفزع[٣]، وقول المتنبي: الفارس المتلثم كناية عن كثرة الغبار وكثافته، ووصوله إلى حلوق الفرسان حتى المتلثم منهم.

كان كافور الإخشيدي، قد ولى شبيب بن جرير العقيلي عمان والبلقاء، فعلت منزلته، واشتدت شوكته، وغزا العرب وتجمعت عليه، فعصى كافور، وأخذ دمشق وسار إليها في عشره آلاف، فخر عن فرسه ميتا[٤] ، وقد ذكر المتنبي ذلك فقال مادحا كافورا وذاكرا شبيبا: [الطويل]

وما كان إلاّ النار في كل موضع يثير غبارا في مكان دخان[٥]

وقد أورد المتنبي ذكر الغبار في غرض المديح في غير ذكر الحرب والشجاعة والجيوش وذلك في قوله مفاضلا بين عطايا سيف الدولة وعطايا غيره، ومشبها عطايا غير سيف الدولة بالأغبار، والأغبار جمع غبار، يقول: [الكامل]

وَلَهُ وإنْ وَهَبَ المُلُوكُ مَواهِبٌ دَرُّ المُلُوكِ لدَرّها أغْبارُ[٦]

أما غرض الوصف فهو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات، ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني، كان أحسنهم وصفاً

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٤/ ٢٩١

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري : ١/ ١٣٨

(٣) السابق: الصفحة نفسها.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري: محمد بن جرير الطبري (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي،، دار التراث – بيروت، الطبعة: الثانية – ١٣٨٧ هـ، ٣٨٨/١١

(٥) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٤/ ٢٤٣.

(٦) السابق ٢/ ٨٧

من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها، ثم بأظهرها فيه وأولاها، حتى يحكيه بشعره، ويمثله للحس بنعته[١] ، وقد جمع ابن الأثير غالبية ما قاله الشعراء في وصف الغبار في قوله: "وعقد العجاج سقفا فانعقد، وأرانا كيف رفع السماء بغير عمد، غير أنها سماء بنيت بسنابك الجياد، وزينت بنجوم الصعاد، ففيها ما يوعد من المنايا لا ما يوعد من الأرزاق، ومنها تقذف شياطين الحرب لا شياطين الاسترزاق"[٢]، والمتنبي دار حول هذه المعاني، من ذلك وصفه للجيوش والمعارك [الكامل] ‘

وبأرعَنَ لَبِسَ العَجَاجَ إلَيْهِمِ ... فَوْقَ الحَدِيدِ وَجَرَّ مِنْ أذْيالِه
فَكَأَنَّما قَذِيَ النَّهَارُ بِنَقْعِه ... أوْ غَضَّ عَنْهُ الطَّرْفَ من إجلالِه[٣]

في البيتين يصف جيشا ضخما، وفيهما شبه الغبار برداء يرتديه هذا الجيش، وبالغ المتنبي ووصف كثرة الغبار الذي يخلفه الجيش وراءه فشبهه بأذيال يجرها وهذا الوصف مناسب أيضا لقوله " لبس" في صدر البيت الأول، وهذا الجيش ولباسه الذي يجره وراءه يشبه الملك العظيم الذي يهابه الناس ويغضون من مهابته، لكن هيبة الجيش وقعت من النهار الذي غض طرفه مهابة، وقد استخدم المتنبي اسمين من أسماء الغبار هما العجاج والنقع.

وعندما ورد رسول الروم يطلب الهدنة من سيف الدولة، قال المتنبي يصف جيش سيف الدولة ويشبهه بالكتاب أو الرسالة وعنوانها الغبار، يقول: [الطويل]

ورُبّ جوابٍ عن كتابٍ بعثْتَه وعُنوانُه للناظِرينَ قَتامُ [٤]

شبه الجيش برساله يبعثها إلى أعدائه، وعنوانها الغبار وذلك لأن الغبار هو أول ما يراه الناس عند زحف الجيوش، من ذلك وصفه لجيش سيف الدولة: [الكامل]

في جحْفَلٍ سترَ العيونَ غُبارُه ... فكأنّما يُبصِرْنَ بالآذانِ
يرْمي بها البلدَ البعيد مظفّرٌ ... كلُّ البعيد له قريبٌ دانِ[٥]

ووصف المتنبي كتائب سيف الدولة بقوله: [المتقارب]

وَمَلْمومَةٍ زَرَدٌ ثَوْبُها ... ولكِنَّهُ بالقَنَا مُخْمَلُ

---

(١) نقد الشعر: قدامة بن جعفر، ص: ٤١

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: أحمد بن علي القلقشندي،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د. ت) ص: ٢٤٠/١

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٣/ ٦٣

(٤) السابق : ٣٩٧/٣.

(٥) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١٧٦/٤، ١٧٧.

يفاجئُ جيشاً به حينُه ... ويُنذرُ جيشاً به القسْطَلُ[١]

إذا فاجأت تلك الكتيبة جيشاً فاجأه بها حينه، وقابله منها حتفه، ويقدمها عند إيقاعها به من عجاج خيلها، ورهج غبارها، ما ينذر غير ذلك الجيش بأمرها، ويهزمه بتوقع بأسها[٢] ، وكذلك ورد ذكر الأسلحة مع ذكر الغبار وذلك في قوله: [الطويل]

أناس إذا لاقوا عدى فكأنما سلاح الذي لاقوا غبار السلاهب[٣]

هذا البيت اختلف في شرحه دارسو شعر المتنبي، وفيه يشبه سلاح أعداء الممدوحين بالغبار، ومعنى ذلك أن الممدوحين لا يخافون أعداءهم ولا يخشونهم، وذلك كناية عن الشجاعة والإقدام، والسلاهب هي الخيل الطوال ومعنى ذلك " كأن سلاح أعدائهم غبار الخيل التي ركبوها، لقلة احتفالهم بهم. ولولا هذا التأويل لكان تخصيصه السلاهب نافراً مستهجناً"[٤] .

ويحتمل أن المتنبي يقصد أن أعداءهم يفرون من ملاقاتهم، وتثير خيلهم الغبار أثناء الفرار، فلا يجدون عند ملاقاة أعدائهم غيره، وإلى ذلك أشار أبو العلاء المعري : " أن عداهم إذا لاقوهم قاتلوهم بالفرار، فسلاحهم أن يركضوا جيادهم فيثور غبارها في الهزيمة"[٥] وقوله مقارنا سيف الدولة بالسيف وسط الغبار : [البسيط]

انْظُر إذا اجْتمع السيفان فِي رهجٍ ... إِلَى اخْتلَافهمَا فِي الْخلق وَالْعَمَل

هَذَا الْمعد لريب الدَّهْر منصلتاً ... أعد هَذَا لرَأس الْفَارِس الْبطل

فالعرب مِنْهُ مَعَ الكدري طائرةٌ ... وَالروم طائرةٌ مِنْهُ مَعَ الحجل [٦]

ومن ذلك قوله يشبه الأسلحة بالنجوم : [الكامل]

أحجار ناس فوق أرض من دم ... ونجوم بيض في سماء قتام[٧]

المعنى يصف المعركة وكثرة القتلى، يقول: إن " مكان الحجارة ناس قتلى فوق تلك الأرض والأرض دماء، وصارت البيض نجوما لامعة في سماء من الغبار[١]، ومن ذلك أيضا قوله: [الطويل]

---

(١) السابق: ٣/٧١.

(٢) شَرْح شِعْر المُتَنبي: لابن الإفليلي، ص: ١ / ٣٣١.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١/ ١٥٣.

(٤) الفتح على أبي الفتح: ص: ٦٣

(٥) اللامع العزيزي : ص: ١٥٥.

(٦) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٨٢/٣

(٧) السابق/ ١٣/٤

يشق بلاد الروم والنقع أبلق بأسيافه والجو بالنقع أدهم[٢]

وتعرض المتنبي لوصف السماء والشمس ساعة المعركة ، من ذلك وصفه للشمس ساعة الغبار: [البسيط]

والباعثُ الجيشَ قد غَالَتْ عَجاجَتُهُ ... ضَوْء النَّهارِ فصار الظُّهْرُ كالطَّفَلِ

الجوُّ أَضْيَقُ ما لاقاهُ سَاطِعُها ... وَمُقْلَةُ الشَّمْسِ فِيْهِ أحْيَرُ المُقَلِ

يَنَالُ أَبْعَدَ مِنْهَا وهِيَ نَاظِرَةٌ ... فما تُقَابِلُهُ إلاَّ عَلَى وَجَلِ[٣]

في الأبيات يصف الجيش بأن غباره قتل أشعة الشمس وطمس إشراقها في وقت الظهر، حتى بدت كأنها في وقت الغروب، وأشار بذلك إلى عظم الجيش، و الغبار يصير كثيفا كلما ارتفع وقوله ومقلة الشمس أحير المقل، وذلك "لقربها من مستقره، ودنوها من مجتمعه"[٤] "وأشار بما وصف من كثرة هذا العجاج إلى كثرة الجيش الذي يثيره، وعظم الجمع الذي يبعثه"[٥]، **ومن يقول:** [البسيط]

والنَّقعُ يأخذُ حرَّاناً وبُقعتَها ... والشَّمسُ تُسفرُ أحياناً وتلتثمُ

سُحْبٌ تمرُّ بحصنِ الرَّانِ ممسكةً ... وما بها البُخلُ لولا أنها نِقَمُ[٦]

يشبه المتنبي الغبار بالسحب التي تحمل النقم بدلا من الماء فهي "سحبٌ تمرُّ ولاءً بحصن الرَّان ممسكة عن المطر لا للبخل، ولكن لأنها سحب النِّقم لا سحب النِّعم وعجاج الحرب لا سحاب القطر، وما أحسن ما شبَّه طوالع الغبار بطوالع السحاب في أخذ الجو وحجب الشمس وظلام الأفق"[٧]، من ذلك قوله: [الخفيف]

لَيلُهَا صُبحُهَا من النَّار، والإصـ بَاحُ لَيلٌ من الدُّخَانِ تمَامُ[٨]

اختلف شارحو شعر المتنبي في معنى قوله : "والإصباح ليل من الدخان" وقد أورد أبو العلاء رأيين في معنى ذلك يقول: وقوله: الإصباح ليل من الدخان تمام يحتمل وجهين: أحدهما: أنهم يوقدون النار بالنهار؛ إلا أنه يخفى ضوؤها لأن قراهم لا ينقطع

---

(١) السابق: الصفحة نفسها.

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٤/ ٨٨

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٣/ ٣٧

(٤) شَرْح شِعْر المُتَنبي : ابن الإفليلي، ص: ٢٢١/١.

(٥) السابق: ص: ٢٢٢

(٦) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١٨/٤

(٧) فَسْر الفَسْر: ٢/ ٣١٥

(٨) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٩٧/٤

في ليل ونهار؛ فدخان النار يستر ضياء الشمس، والآخر: أنهم يغيرون في النهار ويحاربون فيزول نور النهار لأجل الغبار[١]، وأرى أن الرأي الأخير هو المقصود .

ومشهد الخيل والغبار في شعر المتنبي كثير الحضور من ذلك :

تَهْدِي نَوَاظِرُهَا والحَرْبُ مُظْلِمَةٌ ... من الأَسِنةِ نَارُ والقَنَا شَمَعُ[٢]

في هذا البيت يصف الحرب بأنها مظلمة، بما يثور فيها من العجاج، ويسطع من الغبار، اتقاد الأسنة التي تشبه المصابيح، بضيائها في رؤوس القنا، التي تشبه الشمع في إشراقها بها، وهذا مما شبه فيه شيئين بشيئين في بيت واحد، أصح تشبيه، وذلك غاية الإبداع"[٣] من ذلك قوله: [الوافر]

فَأَقْبَلَهَا المُرُوجَ مَسُوَّمَات ... ضَوَامِرَ لا هزَالَ وَلاَ شِيَارُ

تُثِيُر عَلى سَلَمْيَةَ مُسْبَطِرًّا ... تَنَاكَرُ تَحْتَهُ لَوْلاَ الشَّعَارُ [٤]

وسَلَمْيَةُ مدينة كانت عندها المعركة ، وقد أثار الجيش غباراً كثيفاً ، جعل الجيش ينكر بعضه بعضاً لولا علامات مميزة لهم كانوا يعرفون بعضهم بها وهذا من كثرة الغبار وكثافته ، هذا الغبار جعل العقبان وهي طيور جارحة تتعثر في ذلك الغبار فكأنها تسير في كثبان رملية أو أرض لينة ، وهذا من المبالغات التي اشتهر بها المتنبي ، وبسبب هذا الغبار وجد الفرسان طريقاً مختصراً لقتل أعدائهم.

يقول ابن الإفليلي : "تثير هذه الخيل على سلمية؛ هذا الموضع، من ساطع عجاجها، ومتكاثف رهجها، مسبطراً ممتداً، يتناكر الفرسان فيه فلا يتعارفون إلا بالشعار في ظلامه، ولا يتميزون إلا بالكلام [٥] .

ومن ذلك قوله يصف خيلا تثير غبارا يؤثر على عيون الأعداء: [الطويل]

أَتَاهُم بِهَا حَشْوَ العَجَاجَةِ والْقَنَا ... سَنَابِكُها تَحْشُو بُطُونَ الحَمَالقِ[٦]

---

(١) اللامع العزيزي : ص: ١٢٢٠

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٢/٢٢٦، ٢٢٧

(٣) شَرْح شِعْر المُتَنبي : ابن الإفليلي، ص: ١/٣٥٢

(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٢/ ١٠٤

(٥) شَرْح شِعْر المُتَنبي: لأبي القاسم ابن الإفليلي، دراسة وتحقيق: الدكتور مُصْطفى عليَّان، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م، ٢/ ٣٠٣.

(٦) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري : ٢/٣٢٢

وأيضا من بديع وصفه للخيل وتشبيه الغبار بالسحب الممطرة، وجعل عرق الخيل كالوابل إذ كان قد شبه النقع بالسحاب، فهي في سحابٍ من الغبار وفي مطر من العرق، يقول: [المتقارب]

خرجن من النقَّعْ في عارض ... ومن عرق الركْض في وابل(١)

فَمَا شَعَروا حَتَّى رَأَوْها مُغِيرةً ... قِبَاحاً وَأَمَّا خَلْقُها فَجَمِيلُ(٢)

وقوله: [الطويل]

قَرِيبٌ عَلَيهِ كُلُّ نَاءٍ عن الوَرَى ... إذا لَثَّمَتْهُ بالغُبَارِ القَنَابِلُ(٣)

ومعنى البيت : "إن سيف الدولة إذا قاد جيشه، وتقلد نحو العدو خيله، ولثمته كتائبه، بما تثيره من الغبار، وما تبعثه من الرهج، فكل ما يبعد على غيره، قريب عليه مراده، وغير بعيد منه مكانه" (٤)

ويقترن وصف الغبار بغرض الفخر في مواضع شتى من شعره، والفخر هو : " مدحك نفسك بالطّهارة، والعفاف، والحلم، والعلم، والحسب، وما يجرى مجرى ذلك"(٥)، وقد افتخر المتنبي بشعره وهمته العالية بالإضافة إلى المعاني السابقة، فيكاد لا يخلو شعره منه، فجاء فخره في قصائد المديح والرثاء والهجاء، من ذلك قوله في رثاء جدته واصفا نفسه بالشجاعة: [الطويل]

ولو لم تكوني بنت أكرم والد ... لكان أباك الضخم كونك لي أما

لئن لذ يوم الشامتين بيومها ... فقد ولدت مني لآنافهم رغما

تغرب لَا مستعظماً غير نَفسه ... وَلَا قَابلا إِلَّا لخالقه حكما

وَلَا سالكاً إِلَّا فؤاد عجاجة ... وَلَا واجداً إِلَّا لمكرمة طعما(٦)

يفتخر بنفسه بأنه لا يستعظم سوى نفسه، وليس لأحد سلطة عليه إلا الله، و افتخر في البيت الأخير بشجاعته بأنه يقتحم الغبار واستعار للعجاجة فؤادا، ووصف نفسه بأنه يقتحم ذلك الفؤاد، و أنه لا يستعذب شيئًا ولا يجد له طعمًا إلا أن يكون مكرمةً .

---

(١) السابق: ٢٤/٣

(٢) السابق: ١٠١/٣

(٣) السابق: ١١٩/٣

(٤) شَرْح شِعْر المُتَنبي : ابن الإفليلي، ص: ٢٢٤/٢.

(٥) الصناعتين : لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية،بيروت، ط: ١، ١٤١٩ هـ، ص: ١٣١.

(٦) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١٠٧/٤

وقوله: [البسيط]

لأتركنَّ وُجُوهَ الْخَيل ساهمةً ... وَالْحَربُ أَقْوَمُ من ساقٍ على قدم[١]

و هنا يفتخر بشجاعته وقيادته الخيل في المعارك بأنه يجعل وجوه الخيل ساهمة أي متغيرة الوجوه من كثرة عرقها و ما عليها من غبار يجعلها تبدو كالحة عابسة، وقت اشتداد المعركة.

ومنها قوله : [البسيط]

وكلما نطحت تَحت العجاج بِهِ ... أَسد الْكَتَائِب رامته وَلم يرم[٢]

ومن أقواله المشهورة قوله في قصيدة "الحمى":

يقول لي الطبيب أكلتَ شيئاً ... وداؤك في شرابك والطعام

وما في طبه أني جوادُ ... أضرَّ بجسمه طولُ الجمام

تعودّ أن يُغَّبر في السرايا ... ويدخل من قَتام في قَتام[٣]

ويقول مفتخرا على الشعراء في بلاط سيف الدولة: [الطويل]

بَلَغْتُ بِسَيْفِ الدَّولَةِ النُّورِ رُتْبَةً ... أَنَرْتُ بِهَا مَا بَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقِ

إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُو بِلِحْيَةِ أَحْمَقٍ ... أَرَاهُ غُبَارِي ثُمَّ قالَ لَهُ الحَقِ[٤]

يقول ابن الإفليلي تعليقا على البيت الثاني : "ثم قال، مشيراً إلى سيف الدولة، ومعرضاً بمن حوله من الشعراء: إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق يتجاوز قدره، ويفحم عليه شعره، أراه طرفاً مما قيدته في مدحه، وغير كثير مما نظمته في مجده، وكنى عن ذلك بقوله: (أراه غباري) على سبيل الاستعارة، ثم قال له الحق هذه الغاية من الشعر، واسلك هذه الطريقة من النظم، فيبين عند ذلك من عجزه ما يضحكه، ومن تقصيره ما يلهيه ويطربه"[٥] وعول المتنبي على المثل القائل : " الْعَصَا لَا يشق غبارها "[٦]

أما عن غرض الهجاء: فقد ورد ذكر الغبار في ذكر الأبيات التي هجا بها المتنبي خصومه في بلاط سيف الدولة، وكان دائما ما يعاتب سيف الدولة على الاستماع إلى

---

(١) السابق: ٤/ ٤١.

(٢) السابق: ٤/ ٤٢.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٤/ ١٤٨.

(٤) السابق: ٣/ ٣١٤

(٥) شرح شعر المتنبي: ابن الإفليلي: ٢/ ١٠٧

(٦) المستقصى في الأمثال: جار الله الزمخشري،دار الكتب العلمية – بيروت لبنان، الطبعة: الثانية، ١٩٨٧م، ١/ ٣٣٣.

وفيه : هِيَ فرس جذيمة قَالَه قصير حِين أَشَارَ عَلَيْهِ بالهرب عَلَيْهَا وَمَعْنَاهُ أَنه لَا تدركها فرس فَيدْخل فِي غبارها يضْرب للرجل البارع المبرز.

شعر غيره، أو تصديق الشعر الذي كان ينحله أعداؤه وينسبونه إليه ليوقعوا بينه وبين ممدوحيه.

من ذلك قوله يمدح الحسين بن إسحاق التنوخي، وكان قوم قد هجوه ونحلوا الهجاء أبا الطيب، فكتب إليه يعاتبه، فكتب أبو الطيب إليه : [الوافر]

وهاجى نَفْسَهُ من لم يُميّزْ ... كلامي من كلامهم الهُرَاءِ

وإنَّ منَ العجائبِ أنْ تَراني ... فَتَعْدِلَ بي أَقَلَّ منَ الهَبَاءِ[1]

وأقل من الهباء وأدق من الهباء وأخف من الهباء من الأمثال السائرة، المضروبة في التناهي في الصغر [2] والمتنبي يعاتب صاحبه لأنه لم يميز كلامه من كلام غيره، ويرى ذلك من العجائب أن يسوي صاحبه بينه وبين خسيس أقل من الهباء، والهباء هو الغبار الذي يظهر في شعاع الشمس. واستخدم المتنبي كلمة " الهباء" في هجاء السامري، وذلك في قوله: [الوافر]

أسامرِيٌّ ضُحكةَ كلِّ راءٍ ... فَطَنتَ وأنتَ أغبَى الأغبياءِ

صَغُرتَ عنِ المديحِ فقلتَ: أُهجَى ... كأنَّكَ ما صَغُرتَ عن الهِجاءِ

وما فكَّرتُ قَبلكَ في مُحالٍ ... ولا جرَّيتُ سيفي في هَباءِ[3]

و قوله يهجو رجلا لم يحسن إكرامهم: [الطويل]

نزلنا على حكمِ الرياحِ بمسجدٍ علينا لها ثوبا حصى وغبارُ

لا تُنكِرا عصْفَ الرّياحِ فإنها ... قِرَى كلّ ضيْفٍ بات عند سِوارِ[4]

يصف المتنبي في البيتين واقعة حقيقية حيث نزل هو وجماعة في ضيافة رجل فلم يكرمهم الإكرام اللازم، وقد هبت على خيمتهم التي نزلوا بها رياح وغبار، فكان قراهم ذلك الغبار. وقد ذكر انهزام أعداء سيف الدولة، ووصف أثر الغبار عليهم، يقول المتنبي واصفا الدُّمُسْتُق : [الطويل]

وَمَا تَابَ حَتَّى غَادرَ الكرُّ وَجْهَهُ ... جَرِيحاً وَخَلَّى جَفْنَهُ النَّقْعُ أَرْمَدَا[5]

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١/١١.

(٢) جمهرة الأمثال : أبو هلال العسكري، الناشر: دار الفكر – بيروت، لبنان (د. ت) الصفحات: ٤٣٠، ٤٤٣، ٤٥٤.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١/٤٥، ٤٦

(٤) السابق: ٢/١١٤

(٥) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١/ ٢٨٤

يصف المتنبي الدُّمُسْتُق بأنه قاتل حتى انهزم، ولم يترك القتال حتى ظهرت الجراح على وجهه، وأصاب عينه الرمد من كثرة الغبار. ويصف الدُّمُسْتُق في موضع آخر: [الطويل]

ذمّ الدُّمُسْتُق عينيه وقد طلعت ... سودُ الغَمام فظنّوا أنها قزَعُ[١]

بقول المتنبي إن الدمستق لما رأى الغبار الكثيف ظنه سحابا، فلما تبين الأمر وعرف أن السحب ليست سحبا بل هي غبار الجيش ذم عينيه على ذلك.

وورد ذكر الغبار في أغراض أخرى كالطرد والصيد ومن ذلك قوله يصف كلباً يطارد ظبياً : [الرجز]

فَانْبَرَيَا فَذَّيْنِ تَحْتَ القَسْطَلِ قَدْ ضَمِنَ الآخَرُ قَتْلَ الأوَّلِ

في هَبْوَةٍ كلاهما لم يَذْهَلِ لا يَأْتَلِي في تَرْكِ أنْ لا يَأْتَلِي[٢]

والهبوة في البيت الثاني اسم من أسماء الغبار ، والمعني أن أيا منهما لم يذهب عقله بل هو مجتهد؛ فالكلب يجتهد في لحاق الصيد، والظبي لم يذهل عن طلب الخلاص ومعنى البيت الأول: " انبريا: أي اندفعا واعترضا. قوله فذين: أي فردين ونصبه على الحال، وأراد به الظبي والكلب. والقسطل: الغبار. والهبوة: الغبرة. أي أقبلا وظهرا للناظر يعدوان في الغبار منفردين لا ثالث معهما"[٣]، والهبوة اسم آخر من أسماء الغبار سيأتي الكلام عليه.

وورد ذكر الغبار في شعر الحكمة الذي اشتهر به المتنبي وذلك في قوله: [الوافر]

ولو لم يعل إلا ذو محل تعالى الجيش وانحط القتام[٤]

ومن باب الحكمة أيضا، قوله: [الطويل]

ولا تحسبنّ المجدَ زقّا وقينة ... فما المجد إلا السّيف والفتكة البكر

وتضربت أعناق الملوك وأن ترى ... لك الهبوات السُّودُ والعسكر المجر[٥]

يقول : لا تحسبن الفخر والشرف في سماع المغنيات وشرب الخمر، إنما المجد في قتل الأعداء، وقتل الملوك، والمجد في قيادة الجيوش وإثارة الغبار بحوافر الخيل في ساحات القتال. وجاء ذكر الغبار في شعر الغزل في قصيدة يمدح بها سيف الدولة: [الطويل]

---

(١) السابق: ٢/٢٢٦

(٢) السابق : ٣/٢٠٧

(٣) معجز أحمد : ٢/ ١١٤

(٤) السابق : ٤/٧٢.

(٥) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٢/ ١٤٩.

حَبيبُ كأنَّ الحُسْنَ كان يُحبُّهُ ... فَآثَرَهُ أوْ جَارَ في الحُسْنِ قاسمُهْ
تَحُولُ رِمَاحُ الخَطِّ دُونَ سِبَائه ... وَيُسْبَى لهُ منْ كُلِّ حَيٍّ كَرائمُهْ
وَيُضْحَى غُبارُ الخَيْلِ أدْنَى سُتُورِه ... وآخِرُهَا نَشْرُ الكِبَاءِ المُلازِمُهْ[1]

المتنبي في الأبيات التي جاءت ضمن المقدمة الغزلية في قصيدة يمدح بها سيف الدولة يتكلم عن محبوبته ومنعتها، فالذي يسترها ويمنعها خيول قومها وما تثيره من غبار، فهذه المحبوبة يحجبها عن السبي ستور كثيرة من ستائر الغبار، وستائر دخان البخور. يقول ابن الإفليلي : "أدنى ستورها ممن أرادها غُبار خيول قومها، وأقربها منها دخان بخورها، فوصفها بأشد المنعة، وذكر أنها في غاية النعمة"[2]

المبحث الرابع الصورة الفنية للغبار:

نوع المتنبي في صوره التي وصف بها الغبار، فعلى الرغم من كثرة شواهد الغبار في شعره وأيضا مجيء غالبيتها في موضوع الحرب إلا أنها متنوعة، فعندما ذكر الشمس نوع في صورتها، قال المتنبي يمدح بدر بن عمار: [الرمل]

طاعن الفرسان في الأحداق شزرا وعجاج الحرب للشمس نقاب[3]

يصف المتنبي الشمس ساعة المعركة، فقد شبه الغبار المتطاير في السماء، والذي حجب الشمس بنقاب كالنقاب الذي تضعه المرأة، وهو هنا يريد أن يظهر شجاعة الممدوح الذي يقاتل عندما تحجب الشمس بالغبار وهو وقت اشتداد القتال، ومن هذا التشبيه ولد تشبيه آخر وهو تشبيه الشمس بالمرأة، ففي البيت تشبيهان تشبيه العجاج بالنقاب والشمس بالمرأة. و يبدو أن المتنبي أخذ هذه الصورة من البيئة العربية التي فيها النساء تستخدم النقاب والبراقع لتغطية وجوههن من باب الحشمة والوقار، واعتمد المتنبي في رسم هذه الصورة على عنصر التشخيص الذي يعطي الأشياء الجامدة صفات إنسانية.

ومن التصوير الفني للغبار قوله: [البسيط]

فَلَمْ تُتِمَّ سَرُوجٌ فَتْحَ ناظِرِهَا ... إلاَّ وجيشُكَ في جَفْنَيْه مُزْدَحِمُ
والنَّقْعُ يأخذُ حرَّانا وبُقعَتَها ... والشَّمسُ تُسفرُ أحياناً وتلتثِمُ [4]

في البيتين السابقين يصف الشمس مع حركة الجيش وهو يسير متجها إلى مكان المعركة، وقد شبهها بامرأة تسفر عن وجهها والجيش بعيد عنها، وتغطي وجهها كلما

(١) السابق: ص: ٣٢٢/٣
(٢) شَرْح شِعْر المُتَنبي: ١٦١/١
(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١/ ١٣٤.
(٤) السابق : ١٨/٤

اقترب منها،، وكأنها تهاب هذا الجيش العظيم، والصورة الفنية في البيتين قائمة على الاستعارة المكنية حيث حذف المشبه به وهو المرأة وأتي بشيء من لوازمها وهو السفور والالتثام، والصورة تتمتع بالحركة والحيوية ولها دلالة قوية على ضخامة الجيش الذي يحجب غباره الشمس و" حران وسروج من بلاد سيف الدولة متوسطة في مملكته، فليس النقع لقتال في تلك البلاد، وإنما ذلك صفة لكثرة جيشه في دخوله إلى بلاد الروم"[١]، وذكر المتنبي الغبار مع صورة الشمس في مواضع شتى في شعره، من ذلك وصفه بأنها مريضة وقد حجب نورها الغبار وأجنحة الطيور الجارحة التي تصاحب الجيوش [الطويل]:

تمرّ عليه الشمسُ وهْي كليلةٌ ... تُطالِعُه من بينِ ريشِ القَشاعِمِ[٢]

يرى المتنبي في البيت السابق أن الشمس مريضة و ضوءها ضعيف كليل، وذلك بسبب كثافة الغبار، فالشمس تنظر بعين كليلة إلى الجيش وكأنها تنظر خوفا وحياء، واستعان المتنبي بالاستعارة المكنية في توضيح هذا المعني.

ومن هذه الصور التي يصف فيها الغبار والشمس قوله: [الكامل]

فَكَأنَّما قَذِي النَّهَارُ بِنَقْعِهِ ... أوْ غَضَّ عَنْهُ الطَّرْفَ من إجلالِهِ

يصور المتنبي الجيش وضخامته فهو كالجبل المتحرك، ويصف النهار وقد طمس الغبار ضياؤه، حتى كأنه قذي بغباره، أو غض طرفه عنه لمخافته وإجلاله، يشير بذلك إلى تغلب الظلام الذي أحدثه غبار الجيش على ضياء النهار. فقد شبه النهار بإنسان يغض طرفه من مرض في عينيه أو حياء و إجلالا لذلك الجيش العظيم واستخدم المعني مرة أخرى ولكنه كنى بالشموس على النساء يقول [الوافر]:

ولو غير الأميرِ غزا كِلاباً ... ثناهُ عنْ شُموسِهِمُ ضَبابُ[٣]

فقد شبه في السابق النساء بالشموس والغبار هو من يمنع الأعداء من الوصول إليهن "كما أن الضباب يحجب الشمس، ويكف عنها الأبصار كان العجاج، أي: عجاج الحرب يكف الأبصار عن ملاحظة نسائهم فضلاً عن السبي لو غزاهم غير سيف الدولة"[٤]

---

(١) المآخذ على شُرّاح ديوان أبي الطَّيب المُتَنَبِّي : ٥/ ٢٧٦

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٤/١١٤

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١/ ٨٣

(٤) قَشْر الفَسْر : محمد بن الحسن العارض الزَّوزَني، تحقيق: الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض،الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، ١/ ٤١

أما صورة الخيل في مشهد الغبار فقد وردت في شعر المتنبي بصور شتى لكنها صور قديمة ابتدعها الشعراء قبله كالنابغة الذبياني وبشار بن برد وعدي بن الرقاع العاملي وغيرهم من الشعراء السابقين له، من ذلك قوله : [الخفيف]

فَأَتَتْهُم خَوارِقُ الأَرْضِ ماتَح ... مِلُ إِلاَّ الحَدِيْدَ والأَبْطالا
خافياتِ الألوانِ قد نَسَجَ النَّق ... عُ عليها بَرَاقِعاً وَجَلالا[1]

يصف المتنبي في البيتين الخيل وقد غطاها غبار الجيش بالغبار، وشبه هذا الغبار الذي على ظهورها بالجلال وشبه الغبار الذي على وجوهها بالبراقع، وفي البيت الثاني استعارة مكنية حيث شبه الغبار بإنسان ينسج براقع وجلالا . وقوله:

تَهْدِي نَوَاظُرَها والحَرَبْ مُظْلِمَةٌ ... من الأَسِنةِ نَارُ والقَنَا شَمَعُ[2]

يصف المتنبي في هذا البيت الخيل في ساعة المعركة عندما يلتقي الجيشان ويرتفع الغبار الكثيف الذي يحجب الشمس فيجعل النهار ليلا مظلما وذلك ما عناه بقوله : الحرب مظلمة، فالخيل تهتدي في ذلك الظلام بالأسنة والقنا فهي تلمع في ظلام المعركة، وشبه الأسنة بالنار والقنا بالشمع. والصورة هذه وردت كثير في الشعر العربي قبل المتنبي . يقول ابن الإفليلي: "إن خيل سيف الدولة تهدي نواظرها في وقائعه، والحرب مظلمة، بما يثور فيها من العجاج، ويسطع من الغبار، اتقاد الأسنة التي تشبه المصابيح، بضيائها في رؤوس القنا، التي تشبه الشمع في إشراقها بها، وهذا مما شبه فيه شيئين بشيئين في بيت واحد، أصح تشبيه، وذلك غاية الأبداع"[3]

حثَتْ كلّ أرضٍ تُربةً في غُبارِه ... فهنّ عليه كالطّرائقِ في البُردِ[4]

"أي إذا مرَّ هذا العسكر بأرضٍ سوداء علاه غبار أسود، وإذا مرَّ بأرضٍ حمراء علاه غبار أحمر، وإذا مر بتربة غبراء علاه غبار أغبر، فقد صارت عليه هذه الألوان كطرائق وألوان في بردٍ، ويصفه أيضاً ببُعد السرية، لأنه يمر بأرضين وتُربٍ مختلفة الألوان"[5]

وَمَرّوا بالجباه يَضُمُّ فيها ... كلاَ الجَيشينِ من نَقْعٍ إزَارُ
وَجَاءوا الصَّحْصَحَانَ بِلاَ سُروجٍ ... وَقَدْ سَقَطَ العِمَامَةُ والخِمَارُ[6]

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١٣٥/٣
(٢) السابق: ٢٢٦/٢، ٢٢٧
(٣) شرح شعر المتنبي : لابن الإفليلي: ١/ ٣٥١
(٤) السابق: ٦٧/٢
(٥) قشر الفسر: ١/ ١٥٨، ١٥٩.
(٦) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٢/ ٢٠٦.

ومر بنو كعب في هربهم بين يدي سيف الدولة، وجيشه يتلو جمعهم، ويقفو أثرهم، والجيشان؛ يريد: الجيش الهارب، والجيش الطالب، يضنهما من النقع المثار والرهج، ما هو كالإزار الذي يحيط، جاءوا الصحصحان؛ يريد: هذا الموضع، وقد رموا سروجهم، ليكون ذلك أخف للخيل، وأمكن فيما تتكلفه من الجري، وقد سقطت عمائم الرجال، وخمر النساء. يشير إلى شدة الهرب، وقوة الطلب(١)

وشبه الغبار بالرواق في قوله:

تبيتُ رماحُهُ فوق الهوادي ... وقد ضرب العجاجُ لها رِوَاقا(٢)

يرى أبو العلاء المعري أن المتنبي "استعار الرّواق هاهنا للغبار، لأنهم يركزون الرّماح إلى رواق البيت، ولكن المهلبي خطأ هذا الرأي فقال " الرّواق بيت كالفسطاط، يحمل على سطاع واحد في وسطه، وهو العمود، فعلى هذا جعل العجاج في ارتفاعه، وتكاثفه، بمنزلة الرّواق، والرّماح تحمله كالعمد، ولم يرد الرّكز والإسناد إلى رواق البيت، والهاء في لها على هذا التفسير، وهو الصّحيح، تعود على الرّماح دون الهوادي"(٣)

ومن الصور الشائعة في الأدب العربي صورة السيوف التي تلمع وتضيء تحت ظلام الغبار، وقد شبهوا السيوف بالنجوم والغبار بالظلام، قد رسم المتنبي صورة الغبار والسلاح في قوله: (الكامل)

وعجاجةً تركَ الحديدُ قذالها ... زنْجاً تبسّمَ أو قذالاً شائبا

فَكَأَنَّمَا كسي النَّهَار بهَا دجى ... ليل وأطلعت الرماح كواكبا (٤)

يصور المتنبي لمعان السيوف وسط ظلمة الغبار بالزنجي المتبسم، فقد شبه الغبار بالزنجي ولمعان السيوف شبهها بأسنان ذلك الزنجي التي ظهرت عند تبسمه، وفي صورة أخرى فقد شبه الغبار بشعر الرأس الأسود وشبه لمعان السيوف بالمشيب الذي يظهر في هذا الشعر الأسود، وجه ابن وكيع التنيسي سهام نقد إلى المتنبي فقال : " الأحسن في صنعة الشعر لو أمكنه أن يقول: زنجياً تبسم أو قذالاً شَائِبا أو: زنجاً تبسم أو قذالا شائبا فأتى بالجمع مع الجمع والمفرد مع المفرد، وتخصيصه القذال دون اللحية لا يفيد إلا ما يفيد المفرق(٥)

(١) شَرْح شِعْر المُتَنبي : ابن الإفليلي، ص: ٣٠٦/٢، ٣٠٧.
(٢) السابق: ٣٠٠/٢
(٣)المآخذ على شُرّاح ديوان أبي الطَّيب المُتَنَبِّي: ص: ٢/ ٨٠.
(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ١٠٧/١
(٥) المنصف للسارق والمسروق: ص: ٥٣٠

الخاتمة:

تعد ظاهرة وصف الغبار في شعر المتنبي ظاهرة لافتة للنظر، وهي من الجوانب التي لم تأخذ حقها في الدراسة في شعره؛ فلم تخصص لها دراسة مستقلة، وقد تناولت في هذا البحث أسماء الغبار التي وردت في شعره، وقد تبين للبحث أنه نوع في أسماء الغبار التي استخدمها في شعره، لكنه لم يلتزم بالحدود الفاصلة التي وضعها اللغويون وأصحاب المعاجم ليفرقوا بين هذه الأسماء، وفي المبحث الثاني تناولت أسباب تفوق المتنبي في وصف الغبار، وبينت تلك الأسباب التي كان السبب في كثير الحياة الحربية التي كان يعيشها من يمدحهم، بالإضافة إلى براعة المتنبي في شعر الوصف عموما، وفي المبحث الثالث تناولت الغبار والأغراض الشعرية، وقد تبين أن ذكر الغبار ورد في كثير من الأغراض الشعرية عند المتنبي، وفي المبحث الأخير تناولت الصورة الفنية للغبار وقد تناولت نماذج من شعره اشتملت على صور فنية متنوعة ومميزة، وقمت بتحليلها تحليلا فنيا.

ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث : كثرة ذكر الغبار في شعر المتنبي، وكثرة عدد الأسماء الواردة في شعره مع عدم التزامه بالحدود الفاصلة بين الأسماء، ومن النتائج التي توصل إليها البحث أيضا ورود ذكر الغبار في غالبية أغراضه الشعرية، وتنوع صوره الفنية.

المصادر والمراجع

١- **بغية الطلب في تاريخ حلب:** كمال الدين ابن العديم، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، د- ت.

٢- **تاريخ الأدب العربي** : عمر فروخ، لبنان، بيروت ، دار العلم للملايين، طبعة ٤، ١٤٠١ – ١٩٨١.

٣- **تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري:** محمد بن جرير الطبري (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي،، دار التراث – بيروت، الطبعة: الثانية – ١٣٨٧ هـ.

٤- **جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)** : محمد بن جرير، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.

٥- **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي):** شمس الدين القرطبي، أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة : الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.

٦- **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب،** عبد القادر البغدادي، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٨، ١٩٩٧.

٧- **ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري:** تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٨- **ديوان الأفوه الأودي:** تحقيق : محمد التونجي، دار العلم للملايين ن بيروت لبنان، ١٩٩٥.

٩- **ديوان امرئ القيس:** تحقيق: درويش الجندي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان،ط١، ٢٠٠٩م- ١٤٣٠هـ.

١٠- **ديوان الحارث بن حلزة:** تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

١١- **ديوان شعر العاملي** : تحقيق : نوري حمودي القيسي، وحاتم صالح الضامن، العراق، مطبعة المجمع العلمي الواقي ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

١٢- **ديوان الشنفرى** : تحقيق : اميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط : ٢ ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

١٣- **ديوان لبيد بن ربيعة بشرح الطوسي** : تحقيق : حنا ناصر الحتى : دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان ، ط : ١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣ م.

١٤- **شرح ديوان أبي تمام : الخطيب التبريزي،** تحقيق راجي الأسمر، لبنان، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٢ – ١٩٩٤.

١٥- **شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي** : تحقيق : مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،ط١، ١٤١٢ه،١٩٩٢م.

١٦- **شَرْح شِعْر المُتَنبي: لأبي القاسم ابن الإفْليلي** : دراسة وتحقيق: الدكتور مُصْطفى عليَّان، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

١٧- **شرح الصولي لديوان أبي تمام** : تحقيق خلف رشيد نعمان، منشورات وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٨.

١٨- **شرح المعلقات السبع للزوزني** : دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط:١، ٢٠٠٢.

١٩- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا:** أحمد بن علي القلقشندي،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د. ت).

٢٠- **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي** : يوسف البديعي، تحقيق : مصطفى السقا ومحمد الشتا، وعيده رياده، القاهرة، دار المعارف، ط٣.

٢١- **الصناعتين** : لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية،بيروت، ط: ١، ١٤١٩ هـ

٢٢- **صورة الغبار في الشعر الجاهلي** : صالح الحارثي ، جامعة أم القرى رسالة ماجستير (غير مطبوعة) سنة ١٤٣٤هـ.

٢٣- **علوم البلاغة : البيان والمعاني والبديع** : أحمد مصطفى المراغي : المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.

٢٤- **الفتح على أبي الفتح:** محمد بن فُوَرِّجة، تحقيق : عبد الكريم الدجيلي،دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد – العراق، الطبعة الثانية ٢، ١٩٨٧ م.

٢٥- **فقه اللغة وسر العربية** : لأبي منصور التعالبي : تحقيق : خالد فهمي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط : ١ ، ١٩٩٨م.

٢٦- **فن الوصف:** لجنة من أدباء الأقطار العربية: القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١م، (سلسلة فنون الأدب العربي)

٢٧- **قَشْر الفَسْر** : محمد بن الحسن العارض الزَّوزَني، تحقيق: الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض،الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.

٢٨- **لسان العرب** : ابن منظور : تحقيق : أمين محمد عبدالوهاب ، محمد الصادق العبيدي ، دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان ، ط : ٣، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م.

٢٩- **اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي:** لأبي العلاء المعري: تحقيق: محمد سعيد المولوي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٣٠- **المآخذ على شُرّاح ديوان أبي الطَّيب المُتَنَبِّي:** عز الدين الأزدي المُهَلَّبي، تحقيق: الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٣١- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:** ضياء الدين ابن الأثير: محمد محي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

٣٢- **المخصص لابن سيده** : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ت.).

٣٣- **المستقصى في الأمثال:** جار الله الزمخشري،دار الكتب العلمية – بيروت لبنان، الطبعة: الثانية، ١٩٨٧م

٣٤- **معجم العين** : الخليل بن أحمد، تحقيق : د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار الهلال (، د.ت .)

٣٥- **المنصف للسارق والمسروق منه** : لأبي محمد بن الحسن بن وكيع التنيسي، تحقيق : عمر خليفة إدريس. جامعة قات يونس، بنغازي، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م.

٣٦- **نقد الشعر:** قدامة بن جعفر، مطبعة الجوائب – قسطنطينية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٢.

٣٧- **الوساطة بين المتنبي وخصومه** : القاضي علي بن عبد العزير الجرجاني : تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، الكتيبة العصرية، صيدا، بيروت ، ط١، ١٤٢٧ – ٢٠٠٦.